

عالم الغيب والشهادة

في التصور الإسلامي

بقلم
عثمان جمعة ضميرية

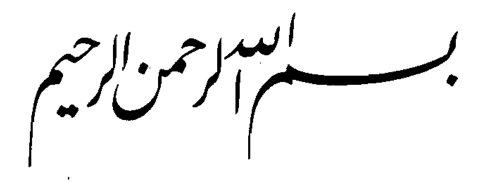
راجعه فضيلة الشيخ
ناصر بن حمد الراشد

عالم الغيب والشهادة

في التصور الإسلامي

الطبعة الأولى
١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م

يطلب من
مكتبة السوادي للتوزيع
جدة - طريق الجامعة
ت/ ٦٨٨٤٢١٢ - ص ب ٤٨٩٨ جدة ٢١٤١٢



المقدمة

الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون. وسبحان الله عمّا يصفون عالم الغيب والشهادة، فتعالى عما يشركون.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﷺ، وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين، أفضل وأزكى ما صلّى على أحد من خلقه وسلم.

وبعد:

فقد كانت الكلمة الأولى التي أُنزلت وحياً على رسول الله، ﷺ، في آخر اتصال للأرض بالسماء هي كلمة «اقرأ». . وبذلك كان الإسلام دين العلم والفكر والنظر، وقد جعل من هذا الكون العجيب والعالم الفسيح مادةً للبحث والتأمل، وأقام ذلك على أسسٍ علمية، يضبطها الوحيُ، ليمنعها من التأرجح والوهم، وبذلك يتناسق ويتوازن مجال الوحي ومجال العقل الذي منحه الله تعالى لهذا الإنسان الذي خلقه الله تعالى على الفطرة، كما جعل الدين دين الفطرة: ﴿ **فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيم** ﴾[1].

---

(١) سورة الروم، الآية (٣٠).

والعالم أو الكون، الذي هو موضوع التأمل والنظر العقلي، جعله الله تعالى قسمين اثنين: عالم الغيب وعالم الشهادة.

أما عالم الشهادة فإن سبيلنا للتعرف عليه هو الحواس التي وهبنا الله تعالى إياها، والعقلُ الذي جعله الله تعالى مناط التكليف وأداة الحكم على كل ما يقع في مجاله. وعالم الغيب الذي لا يقع تحت الحس المباشر، نتعرف عليه عن طريق الخبر الصادق الذي يدل عليه، فالوحي يدلنا على كل ما ينبغي أن نؤمن به مما هو داخل في نطاق عالم الغيب، كما أن هناك آثاراً تدل عليه.

وهذا التقسيم للعالم إلى غيب وشهادة أصل كبير له أهميته في التصور الاسلامي للوجود، ولذلك كان من الأهمية بمكان أن نتعرف على كلٍ من عالمي الغيب والشهادة وطبيعة كل منهما، ومعرفة أنواعه، وطريقة الإيمان به والتعرف عليه، وهو ما أحاول أن أجمع أصوله العامة وخطوطه الرئيسية في هذا البحث، ولن أُعْنَىَ بتتبُّع ما يدخل في قسم الغيبيات تفصيلاً، كالإيمان بالملائكة والجن، واليوم الآخر وكل ما يدخل فيه من حقائق... الخ مما يدرسه علماء التوحيد، فذلك كلّه بتفصيله خارج عن إطار هذا البحث، فحسبنا هذه النظرة الكلية العامة لعالَمي الغيب والشهادة.

وقد تفضل بقراءة هذا البحث صاحب الفضيلة العلامة الشيخ/ناصر بن حمد الراشد، الرئيس العام لتعليم البنات، والرئيس العام لشؤون الحرمين الشريفين - سابقاً - وأفدت من ملاحظاته الدقيقة، كما قرأه الأستاذ الفاضل/سعيد عبد الكريم، وأمدني بملاحظاته وببعض المراجع العلمية، فلهما جزيل الشكر وخالص الدعوات، والله أسأل أن يلهمني الصواب، وأن يتجاوز عن الخطأ، وهو وحده - سبحانه - الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

الطائف ١٤٠٦/٨/١٠ هـ   عثمان بن جمعة ضميرية

مدخل إلى البحث

- دعوة القرآن الكريم للتفكر في الكون
- الكون والعالم
- العالم في اللغة
- أقسام العالم
- خطة البحث

مدخل إلى البحث

● في القرآن الكريم دعوة ملحّة إلى التفكر والنظر والتدبر في هذا الكون العجيب البديع، الذي خلقه الله سبحانه وتعالى، وأقامه دليلاً على وجوده، وجعل من الوحدة والتناسق في نظامه دليلاً على وحدانيته وقدرته سبحانه وتعالى.

والكون هو هذا العالم الذي نعيش فيه، ومجموع أجزائه، أي مجموع المخلوقات، يطلق عليها اسم «العالَم».

● والعالم في اللغة العربية: اسم لما يُعْلم به الشيء، مشتقٌّ من العلم والعلامة، ثم غلب في الاستعمال: فيما يُعْلم به الخالق الذي أوجد هذا العالم؛ لأن وجود العالَم علامة لا شك فيها على وجود خالقه، متصفاً بصفات الكمال والجلال، قال الله تعالى: ﴿**إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب**﴾[1].

فالعالَم: هو ما سوى الله تعالى من المخلوقات. فكل موجود عالَم، لأنه مما يعلم به وجود الخالق سبحانه وتعالى، ويجمع على: عالَمِيْن وعَوَالِم، وقد تكرر هذا الاسم في القرآن بصيغة الجمع: «العالمين» أكثر من سبعين مرة[2].

(١) سورة آل عمران، الآية (١٩٠).
(٢) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، مادة: علم، ص ٤٨٠.

● ويقسم العلماءُ العوالمَ إلى أقسام متعددة، حسب وجهة النظر إليها. . . ومن هذه الوجوه: حصر العوالم، من جهة أصولها، في عالمي: الغيب والشهادة؛ لانقسامها إلى ما هو غائب عن الحواس وشاهدٍ له[1].

● وفيما سيأتي - إن شاء الله تعالى - نلقي نظرة على ما يطلق عليه اسم الغيب والشهادة في اللغة العربية، التي جعلها الله تعالى لغة القرآن الكريم وحفظها بحفظه وشرّفها بإنزال وحيه بلسانها، إذ التعريفات الاصطلاحية في أصلها تعريفات لغوية أُخرجت عن معناها اللغوي إلى معنى آخر لبيان المراد عند طائفه معينة من العلماء في عِلْم معين[2].

ثم نتعرف بعد ذلك على وسيلة الحكم ومصدر المعرفة لكلٍ من عالمي الغيب والشهادة، وتحديد ما يمكن معرفته من عالم الغيب بمراتبه وأنواعه، مع بيان قيمة الإيمان بالغيب ومكانته في الفكر الإسلامي، ونلمع بإشارات موجزة إلى حدود المنهج العلمي التجريبي، لأن ذلك يضع إطاراً وضوابط لما يمكن معرفته عن طريق الحواس والعقل وما لا يمكن معرفته عن طريقهما، وبعد ذلك نُلْمِع إلماعات سريعة إلى مفاتح الغيب الخمس التي استأثر الله سبحانه وتعالى بعلمها، مع بيان الحكمة في حصر الغيب بهذه المفاتح، ونحاول أن نتلمس الحكمة أيضاً في حجب بعض العلم عن البشر، ونعرض صورته لعلم الله تعالى الشامل للغيب بكل صوره ودقائقه، كما جاءت في كتاب الله تعالى المقروء، القرآن الكريم، بعد أن رأينا عظمة الخالق سبحانه في كتابه المفتوح، الكون، ونختم البحث بما قاله العلماء عن حكم من يدعي معرفة علم الغيب. وبالله تعالى التوفيق، ومنه العون والسداد.

---

(١) انظر: كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي: ١٠٥٣/٤.

(٢) انظر: التعريفات للسيد الجرجاني، ص ٢٢.

عالم الغيب والشهادة

- الغيب في اللغة
- الشهادة في اللغة
- الغيب ليس عدماً ولا غير معقول
- خطأ الفلاسفة...
- الاحساس بالغيب في حال دون حال
- بين منهج الأنبياء ومنهج الفلاسفة

عالم الغيب والشهادة

الغيب في اللغة:

● قال الإمام اللغوي ابن فارس: «غيب، الغين والياء والباء، أصل صحيح يدل على تستُّر الشيء عن العيون، ثم يقاس على ذلك ويستنبط منه معاني شتى.

فالغيب: كل ما غاب عنك مما لا يعلمه إلا الله.

ويقال: غابت الشمس تغيب غَيْبَة وغيوباً وغيباً، وغاب الرجل عن بلده، وأغابت المرأة فهي مغِيْبَة: إذا غاب بعلها، ووقعْنا في غَيْبة وغَيابة: أي هبطة من الأرض يُغَاب فيها. قال الله تعالى: ﴿وألقوه في غَيَابة الجب﴾[1] والغابة: الأَجَمَةُ، وسمّيت بذلك لأنه يُغاب فيها»[2].

● وقال الراغب الأصفهاني:

«الغيب: مصدر غاب الشيء، بمعنى استتر عن العيون، يقال: غاب عني كذا، واستُعمِل في كل غائب عن الحاسة، وعما يغيب عن علم الإنسان، بمعنى الغائب.

ويقال للشيء: غيب وغائب، باعتباره بالناس، لا بالله تعالى، فإنه لا يغيب عنه شيء، كما لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض.

---

(١) سورة يوسف، الآية (١٠).

(٢) معجم مقاييس اللغة، لابن فارس: ٤٠٣/٤. وانظر: تفسير الطبري: ٣٣٧/١.

والغيب: هو ما لا يقع تحت الحواس، ولا تقتضيه بدائه العقول، بحيث لا يدرك بواحدٍ منهما ابتداء بطريق البداهة، وإنما يعلم بخبر الأنبياء،عليهم الصلاة والسلام، وبإنكار عالم الغيب يقع على الإنسان اسم الإلحاد»[1].

● وقال الإمام أبو بكر بن العربي في تفسيره أحكام القرآن، في فاتحة سورة البقرة:

«الغيب: وحقيقته ما غاب عن الحواس مما لا يوصل إليه بالخبر دون النظر، وقد اختلف فيه العلماء على أربعة أقوال:

الأول ـ ما ذكرناه، كوجوب البعث، ووجود الجنة ونعيمها وعذابها والحساب. الثاني بالقدر. الثالث: بالله تعالى. الرابع: يؤمنون بقلوبهم الغائبة عن الخلق، لا بألسنتهم التي يشاهدها الناس؛ معناه: ليسوا بمنافقين.

وكلُّها قويّة إلا الثاني والثالث؛ فإنه يدرك بصحيح النظر، فلا يكون غيباً حقيقة، وهذا الأوسط وإن كان عاماً فإن مخرجه على الخصوص.

والأقوى هو الأول؛ أنه الغيب الذي أخبر به الرسول عليه الصلاة والسلام مما لا تهتدي إليه العقول، والإيمان بالقلوب الغائبة عن الخلق... وكل هذه المعاني صحيحة لا يُحْكَم له بالإيمان ولا بحمى الذمار، ولا يوجب له الإحترام، إلا باجتماع هذه الثلاث، فإن أخلَّ بشيء منها لم يكن له حرمة، ولا يستحق عصمة»[2].

● وفي النهاية لابن الأثير الجزري:

«الغيب هو كل ما غاب عن العيون، سواء كان محصّلاً في القلوب أم غير محصّل[3].

---

(١) مفردات القرآن للراغب الأصفهاني ص ٣٦٦ ـ ٣٦٧، وانظر: تفسير البيضاوي ص ٨، وتفسير أبي السعود: ١/٥٣.

(٢) أحكام القرآن، لابن العربي: ١/٨ ـ ٩. وقد نقلت النص بطوله عن تفسيره لقوله تعالى: ﴿الذين يؤمنون بالغيب﴾ في سورة البقرة، لأنه يلقي الضوء على معاني الغيب عامة.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، لأبن الأثير الجزري: ٣/٣٩٩.

والخلاصة: أن عالم الغيب هو العالم الذي غاب عن حواسنا ولا تقتضيه بدائه العقول ونتوصل إلى معرفته بالخبر الصادق والآثار التي تدل عليه، فالملائكة والجن والشياطين واليوم الآخر وما فيه من حقائق ومقومات كالبعث والحشر والحساب والصراط والميزان والجنة والنار. . . وما جاء في القرآن الكريم عن خلق السموات والأرض، وكل ما أخبر عنه القرآن. . كل ذلك من عالم الغيب المغيّب عن حواسنا، فهو يقع في مجال غير المرئيات.

الشهادة في اللغة:

● قال ابن فارس في معجم مقاييس اللغة:

«الشين والهاء والدال، أصل يدل على حضور وعلم وإعلام، لا يخرج شيء من فروعه عن هذا الذي ذكرناه.

ومن ذلك: الشهادة، فهي تجمع الأصول التي ذكرناها، من الحضور والعلم والإعلام، يقال: شهد يشهد شهادة. والمشهد: محضر الناس»[1].

والشاهد في اللغة، عبارة عن الحاضر[2].

ومن أسماء الله تعالى: «الشهيد» وهو الذي لا يغيب عنه شيء. والشاهد: الحاضر، وصيغة المبالغة منه: «شهيد»، فإذا اعتبر العلم مطلقاً فهو العليم، وإذا أضيف إلى الأمور الباطنة فهو: «الخبير»، وإذا أضيف إلى الأمور الظاهرة فهو: «الشهيد». وقد يُعْتَبر ـ مع هذا ـ أن يشهد على الخلق يوم القيامة بما علم[3].

والمشاهدة هي: الإدراك بإحدى الحواس الظاهرة أو الباطنة، والمشاهدات هي: المحسوسات. وقد تُجْعل أعمَّ أو أخصّ منها[4].

---

(١) معجم مقاييس اللغة، لابن فارس: ٣/٢٢١. وعن معاني الشهادة ومراتبها، انظر شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز ص ٣٢ ـ ٣٩.

(٢) التعريفات للجرجاني ص ١٠٩.

(٣) النهاية، لابن الأثير: ٢/٥١٣.

(٤) كشاف اصطلاحات الفنون، للتهانوي: ٣/٧٤٠.

والخلاصة:

أن عالم الشهادة هو كل ما هو حاضر مشاهد نستطيع أن ندركه ونحكم عليه بإحدى حواسنا، والعلم به عند إدراكه علم ضروري لا يتوقف على استدلالٍ أو نظر عقلي.

الغيب ليس عدماً أو غير معقول:

● وباستقراء استعمالات العرب لكلمة الغيب ومشتقاتها، نجد أنها تقابل الشهادة وليست مقابلة للشيء الموجود أو الشيء المعقول، وقد جمع الله تعالى بين الكلمتين كثيراً، كما في قوله تعالى: ﴿**عالم الغيب والشهادة**﴾، فكل منهما تقابل الأخرى كما أنها أيضاً ليست مقابلة للشيء الواقع، كما يظن بعض الناس، حيث يكون عندهم الإيمان بالغيب إيماناً بغير الواقع!

إذن فليس الغيب معدوماً، ولا هو الذي يحكم العقل باستحالته، أو يكون غير واقعي.

● ومن هنا يتبين لنا خطأ الذين يعتبرون الإيمان بالغيب إيماناً بشيء غير معقول، أي مخالفاً للعقل، أو مخالفاً للواقع، أو إيماناً بشيء معدوم.

وذلك لأنا رأينا أن الغيب ليس مقابلاً للموجود، في لغة العرب، ولا مقابلاً للمعقول بمعنى ما يقبله العقل، ولا مقابلاً للشيء الواقعي، وإنما هو مقابل للشهادة، أي الشيء الحاضر المشهود(1).

● ويظهر لنا أيضاً خطأ الفلاسفة ومن تابعهم، ممن جعلوا الفرق بين الغيب والشهادة هو الفرق بين المحسوس والمعقول، فجعلوا المحسوس مشهوداً وقابلوه بالوجود العقلي، وزعموا أن هذا الموجود العقلي هو الغيب الذي أخبرت به الرسل.

---

(1) انظر: موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين، للشيخ مصطفى صبري: ٢/ ٢٧ وما بعدها، ففيه تفصيل ومناقشات حول هذه الفكرة.

ووجه هذا الخطأ من جهة الشرع: أن الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ أخبرت عما لم نشهده ولم نحسه في الدنيا، وسمَّتْ ذلك غيباً لمغيبه عن الشهادة، كقوله تعالى: ﴿**الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة**﴾[1]، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿**عالم الغيب والشهادة**﴾[2].

فالغيب ما غاب عن شهود العباد، والشهادة ما شهدوها.

وأما وجه الخطأ من جهة العقل أيضاً: فإنهم قابلوا بالمحسوسات أموراً معقولات خارجة عن العاقل لا يمكن الإشارة اليها ولا الإحساس بها بوجه من الوجوه، وليست داخل شيء من العالم ولا خارجه، ولا مباينة له ولا حالّة فيه فإنه من المعلوم: أن المعقولات ما عَقَلها الإنسان، فهي معقولة العقل، وأَظْهَرُ ذلك الكليات المجردة: كالإنسانية المطلقة، والحيوانية المطلقة، والجسم المطلق، والوجود المطلق، فإن هذه من وجوده في العقل، وليس في الخارج شيء مطلق غير معيَّن، بل لا يوجد إلا وهو معيَّن مشخص، وهو المحسوس، وإنما يُثْبت العقليات المجردة في الخارج الغالطون من المتفلسفة كالفيثاغورية، الذين يثبتون العدد المجرد، والأفلاطونية الذين يثبتون المُثُل الأفلاطونية، وهي الماهيات المجردة، والهيولىٰ المجردة، والمدّة المجردة. والخلاء المجرد[3].

يمكن الإحساس بالغيب:

إن ما سبق من الفرق بين الغيب والشهادة، من أن الغيب هو ما غاب عن شهود العباد والشهادة ما شهدوها ـ لا يوجب أن يكون الغيب ليس مما يمكن إحساسه، بل من المعلوم بالاضطرار أن ما أخبرت به الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ من الثواب والعقاب كله مما يمكن إحساسه، بل وكذلك ما أخبرت به عن الملائكة، والعرش، والكرسي، والجنة والنار، وغير ذلك، لكنا لم نشهده الآن، بل هو غيب عنا.

---

(١) سورة البقرة، الآية (٣).

(٢) سورة الرعد، الآية (٩).

(٣) درء تعارض العقل والنقل، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ٥/١٧٢ ـ ١٧٤، ٦/٣٣.

ولهذا فإن أعظم ما أخبرت به من الغيب هو الله سبحانه وتعالى، مع إخبار الرسول ﷺ، لنا بأنّا نراه في الآخرة عياناً كما نرى الشمس والقمر[1] فأي إحساس أعظم من إحساسنا بالشمس والقمر.

وهذا يعني أن الموجود هو ما يمكن الإحساس به، ولو في الآخرة وأن ما أخبرت به الأنبياء من الغيب هو مما يمكن معرفته بالحس كالرؤية مثلاً، وهذا قول جماهير أهل الإيمان بالرسل وسلف الأمة وأئمتها، ولا يلزم من تعذر رؤية الشيء في حالٍ تعذُّر رؤيته في حال أخرى، بل قد يُرى الشيء في حال دون حال، كما أن الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ يرون ما لا يراه غيرهم، فهم يرون الملائكة وغيرها. بل الجنُّ يراهم كثير من الناس[2].

بين منهج الأنبياء ومنهج الفلاسفة:

ولذلك كانت عبارة الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، تقسيم الأمور إلى غيب وشهادة، كما قال الله تعالى: **﴿هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم﴾**[3].

---

(١) رؤية الله عز وجل يوم القيامة ثابتة بنصوص الكتاب والسنة، وهي حق لأهل الجنة بغير إحاطة ولا كيفية.

وانظر تفصيل ذلك مع الأدلة والمناقشات في: شرح العقيدة الطحاوية: ١٦٣ ـ ١٩٨، التوحيد واثبات صفات الرب لابن خزيمة: ١١٠ ـ ١٤٩، السنة لابن أبي عاصم: ١٨٨ ـ ٢٠٩، شرح اصول اعتقاد اهل السنة للالكائي: ٣/٤٧٠ ـ ٥٢١، مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم: ٢٨٠ ـ ٢٨٥، مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، انظرها في الفهارس: ٩٧/٣٦ ـ ٩٨، ودرء التعارض أيضاً في الفهارس: ٤٦٨/١١. وانظر: تفسير الطبري: ١٩٢/٢٩ ـ ١٩٤، ابن كثير: ٤/ ٤٥١، فتح الباري لابن حجر: ٦٦/٨ ـ ٦٩، شرح الفقه الأكبر لملاعلي القاري ١٩٠ ـ ٢٠٤.

(٢) درء تعارض العقل والنقل: ١٣١/٥

ورؤية الإنسان للجن تكون عندما يتصورون ـ أي الجن ـ ويتشكلون ببعض الصور فتمكن رؤيتهم، كما في حديث ابي هريرة، رضي الله عنه، في صحيح البخاري، عندما أتاه وجعل يحثو من الطعام. . . وهذا لا ينافي قوله تعالى: **﴿إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم﴾** فإن هذا مخصوص بما إذا كان الجنيّ على صورته التي خلقه الله تعالى عليها، فإنه لا يُرى. انظر: فتح الباري بشرح البخاري، للحافظ ابن حجر العسقلاني: ٤٨٧/٤ ـ ٤٨٩.

(٣) سورة الحشر، الآية (٢٢). وقد وردت الكلمتان مقترنتين في آيات كثيرة. المعجم المفهرس ص ٥٠٧.

وأما الفلاسفة: فيقسمون الأمور إلى محسوس ومعقول، والمعقول في الحقيقة ما كان في العقل، وأما الموجودات الخارجية فيمكن أن ينالها الحس وأن يوقف الإحساس بها على شروط متيقنة الآن[1].

ولا مجال للموازنة بين منهج القرآن الكريم ومنهج الفلاسفة في تقسيم العالم إلى غيب وشهادة. فإن القرآن الكريم يبلغ الغاية المتناهية في الدقة عندما يستعمل هذا المصطلح الذي أطلقه على الكون: «عالم الغيب والشهادة».

يقول أحد الباحثين:

«ونحن نلاحظ هنا دقة المصطلح القرآني وأفضليته على أي مصطلح آخر. فعالم الشهادة هو العالم الذي نشهد وجوده. وعالم الغيب هو عالم موجود أيضاً ولكنه غائب عنا.

والمفهوم المقابل (المرادف) للغيب ليس هو العدم، بل «الحضور». فغياب شيء لا يعني أنه معدوم أي لا وجود له؛ بل يعني أنه غير حاضر، لأنه غير مشاهد لأنه غير ظاهر. ولكن كونه غير «مشاهد» يعني أنه غير داخل في مجال «عالم الشهادة» ولا يعني أنه غير ممكن المعرفة، بل: غير ممكن المعرفة بوسائل المعرفة في عالم الشهادة، أو بها وحدها على الأقل»[2].

---

(١) درء تعارض العقل والنقل: ٦/٣٢ و٣٣.

(٢) انظر: الإسلام والعلم، بحث للأستاذ توفيق الطيب، بمجلة حضارة الإسلام ـ دمشق ـ عدد شوال ١٣٨٥ هـ، ص ١٥.





مصادر المعرفة وطرق العلم

- إجمال وبيان...
- الطريق الأول: الحس: - تعريفه - الحث على استخدام الحواس
  الحواس منافذ لمعرفة عالم الشهادة - قيمة هذا المصدر
- الطريق الثاني: العقل: الحث على التعقل والتفكر في القرآن الكريم
  قيمة العقل ودوره - مجالات عمل العقل
- الطريق الثالث: الخبر الصادق: أنواعه - العلم الضروري والاستدلالي - أهمية الخبر بين مصادر المعرفة.
- الخلاصة



مصادر المعرفة وطرق العلم

إجمال وبيان:

مصادر المعرفة هي الوسائل التي نستخدمها للتعرف على الموجودات في عالم الغيب والشهادة، وكما أن طبيعة عالم الغيب تختلف عن طبيعة عالم الشهادة، فإن الطرق لمعرفة كلٍ منهما تتفق مع طبيعة موضوع المعرفة، الذي هو عالم الغيب والشهادة.

ونشير فيما يلي إلى مصادر المعرفة - بعامّة - ثم نتعرف على وسيلة ومصدر معرفة كل من عالمي الغيب والشهادة وحدود هذه المعرفة وضوابطها.

● والطرق أو الأسباب التي يتعرف بها الإنسان على الموجودات، ويحكم عليها من خلالها، ويعلمها علماً يقينيّاً أو ظنياً، إما أن تكون من خارج نفس الإنسان أو مِنْ داخلها.

فإن كانت من خارج النفس فهي الخبر الصادق، وإن كانت من داخل النفس؛ فإن كان العلم بها بواسطة آلة غير المدرك فهي الحواس، وإلّا فالعقل والنظر والاعتبار بحدوده وضوابطه.

يقول شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله:

«طرق العلم ثلاث: أحدها الحس الباطن والظاهر، وهو الذي تُعْلم به

الأشياء الموجودة بأعيانها. والثاني: الاعتبار بالنظر والقياس. والثالث: الخبر»[1].

الطريق الأول:

وهو الحس الباطن والظاهر، وهو الذي تعلم به الأمور الموجودة بأعيانها، والحس إنما يكون بالحواس، وهي جمع حاسة، بمعنى القوة الحاسة، كحاسة السمع بالنسبة للمسموعات، والبصر الذي يدرك به الأضواء والألوان والأشكال والمقادير والحركات والحسن والقبح، وغير ذلك مما يخلق الله تعالى إدراكه في النفس عند استعمال العبد تلك الحاسة. والشم الذي تدرك به الروائح... والذوق الذي يدرك به الطعم، واللمس الذي تدرك به الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة، ونحو ذلك، عند التّماسّ...

● وبكل حاسة من هذه الحواس يطّلع الإنسان على المحسوسات، ويحكم بها على ما وضعت له تلك الحاسة، فلا يدرك بها ما يدرك بالحاسة الأخرى، يعني أن الله تعالى قد خلق كلاً من تلك الحواس لإدراك أشياء مخصوصة، كالسمع للأصوات، والذوق للمطعومات، والشم للروائح... ولا يدرك بواحدة من هذه الحواس ما يكون إدراكه خاصاً بالحاسة الأخرىٰ.

● وقد دعا الله سبحانه وتعالى الإنسان لاستخدام هذه الحواس للتعرف على هذا الكون والتأمل فيه، والنظر في عجائب مخلوقاته، في النفس والآفاق. فإن الإنسان مسؤول عن هذه الحواس والملكات التي زوّده الله تعالى بها، ووهبه إياها لتكون عوناً له على أداء وظيفته الكبرى في هذه الحياة، وهي عمارة الأرض وفق المنهج الالهي، ولا يجوز له أن يعطّل هذه المواهب أو الحواس عن وظيفتها.

قال الله سبحانه وتعالىٰ:

﴿إن السمع والبصر والفؤاد، كل أولئك كان عنه مسؤولاً﴾[2].

---

(١) درء التعارض..، ٧/٣٢٤ ـ ٣٢٥.

(٢) سورة الاسراء، الآية (٣٦).

﴿فلينظر الإنسان إلى طعامه: أنّا صببنا الماء صبّاً، ثم شققنا الأرض شقّاً، فأنبتنا فيها حباً وعنباً وقضباً وزيتوناً ونخلاً، وحدائق غُلْباً، وفاكهة وأبّاً، متاعاً لكم ولأنعامكم﴾[1].

﴿ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون﴾[2].

﴿وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون﴾[3].

﴿قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون﴾[4].. الخ.

وما أعظم خسارة أولئك الذين امتَّن الله تعالى عليهم فوهبهم هذه الحواس والقدرات ولكنهم لم يفيدوا منها، ولم يحققوا الغاية التي مُنحت هذه الحواس لتحقيقها: **﴿أولئك الذين لعنهم الله فأصمَّهم وأعمى أبصارهم﴾**[5].

ولذلك ينبغي أن يحذر المؤمنون ذلك الإلغاء أو التعليق لحواسهم: **﴿ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون. إن شرَّ الدواب عند الله الصُّمُّ البُكْم الذين لا يعقلون﴾**[6] فالحواس هي المنافذ التي ينظر العقل من خلالها.

● إلا أن هذه الحواس في حكمها على الأشياء لا تعطي حكماً مطلقاً قاطعاً، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولا تستطيع أن تحيط علماً بكل الأشياء، أو بحقائقها وكنهها، وإنما هي وسيلة بمفردها غير كافية للحكم على الأشياء كلها، بل هي محدودة في حدود مظاهر وخصائص الأشياء في عالم الشهادة، وهي نافذة ووسيلة قد يكتنفها الخطأ والخداع، مما جعل بعض من كتب عن المنهج العلمي في البحث عن الحقيقة يقول:

شاهدت بعض الأحايين أن هذه الحواس تخدعنا، ومن الحزم ألّا نثق البتة

---

(١) سورة عبس، الآية (٢٤ ـ ٣٢).
(٢) سورة الأنفال، الآية (٢١).
(٣) سورة السجدة، الآية (٩).
(٤) سورة الملك، الآية (٢٣).
(٥) سورة محمد، الآية (٢٣).
(٦) سورة الأنفال، الآية (٢١ و٢٢).

تمام الثقة في الذي يخدعنا مرة واحدة[1].

● ولهذا لما جعل الماديون، من الغربيين وغيرهم، الحواس وحدها مصدراً للمعرفة في العصور الأخيرة، كان التخبط والاضطراب الذي نشاهده عندهم ويعيشونه في واقع حياتهم، ثم اقترابهم من الهاوية وإشرافهم عليها.

ووقع هذا الخلل، الذي أشرنا إليه، من جانبين:

١ - الاعتماد على الحواس فقط فيما يسمى بالمنهج العلمي التجريبي، وهو قاصر، لأنه ليس هو المصدر الوحيد للمعرفة، كما أن له حدوداً معينة، سنشير اليها فيما يأتي إن شاء الله تعالىٰ.

٢ - قصور الحواس نفسها في إعطاء فكرة جليّة واضحة متكاملة عن الأشياء كلها وعن الكون والحياة والانسان[2].

ولا يعني هذا أن نُسْقِط قيمة الحواس من مصادر العلم والمعرفة، فإن في ذلك مكابرة للعقل والبديهة والواقع، وإنما نضعها في مكانها المناسب لها بحدودها وضوابطها، دون أن نهملها ولا أن نعتمد عليها اعتماداً كلياً ونسقط ما عداها أو نُدْخِل الضيم عليه ونقلل من شأنه في مجاله.

الطريق الثاني:

وهو العقل والاعتبار بالنظر والقياس: وإنما يحصل العلم به بعد العلم بالحس، فما أفاده الحس معيّناً يفيده العقل والقياس كلياً مطلقاً.

فهو لا يفيد بنفسه علم شيء معين، لكنه يجعل الخاص عاماً والمعينّ مطلقاً، فإن الكليات إنما تُعْلم بالعقل، كما أن المعينات إنما تعلم بالإحساس[3].

---

(١) مقال عن المنهج، تأليف رينيه ديكارت، ترجمة محمود محمد الخضيري ص ٥٠.

(٢) انظر: التصور الاسلامي للكون والحياة والإنسان، لكاتب هذا البحث، طبع دار الأرقم بالكويت.

(٣) درء التعارض ٧/٣٢٤.

● وما أكثر الآيات القرآنية الكريمة التي يحثنا الله تعالى فيها على استعمال العقل! وهو المفتاح الذي منحه الله تعالى لبني آدم ليفتحوا به أبواب الملكوت، ويدخلوا ساحة الإيمان بالله الذي سخّر للإنسان كل ما في السموات والأرض.

كما حثت الآيات الكريمة على التفكير العميق، المتبصر المسؤول، بكل ما يحيط بالإنسان من علامات وأشياء وموجودات. وأكَّدتْ على الأسلوب الذي يعتمد البرهان والحجة والجدال الحسن، للوصول إلى النتائج الصحيحة القائمة على الاستقراء والموازنة والتمحيص، استناداً إلى المعطيات الخارجية المتفق عليها، والقدرات العقلية والمنطقية لأولئك الذين بلغوا شأواً بعيداً في هذا المضمار[1]:

﴿كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون﴾[2].

﴿وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون﴾[3].

﴿أإله مع الله؟ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾[4].

﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علمٍ ولا هدى ولا كتاب منير﴾[5]... الخ... الخ.

● والإسلام يقدر العقل باعتباره نعمة من أكبر النعم التي أنعم الله تعالى بها على الإنسان: **﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون﴾**[6].

ولكنه لا يبالغ في تقدير قيمة العقل، كما كانت تفعل العقلانية الإغريقية ومَنْ ورثها من بعدُ، من الأمم الأوروبية الحديثة والجاهلية المعاصرة، إذ ليس

---

(١) انظر: خصائص التصور الاسلامي، للأستاذ سيد قطب رحمه الله ص ٥٨ ـ ٦٠، تهافت العلمانية، د. عماد الدين خليل ص ٣٤ ـ ٣٦.
(٢) سورة البقرة، الآية (٢٤٢).
(٣) سورة الحشر، الآية (٢١).
(٤) سورة القصص، الآية (٧٥).
(٥) سورة الحج، الآية (٨).
(٦) سورة النحل، الآية (٧٨).

العقل هو الحكم الذي لا يخطىء، ولا هو المرجع الأخير لكل شيء، رغم أنه أداة ضرورية لفهم النصوص الشرعية.

● فهناك أمور لا يستطيع العقل من ذات نفسه أن يصل إليها، لأنها لا تقع في محيط تجربته وعمله، ولا تستطيع الأدوات التي يحصِّل بها المعرفة، وهي أدوات الحس، أن تصل إليها، لأنها خارجة عن نطاق المحسوس، وإن كان في إمكان العقل أن «يعقلها» حين تُبيَّن له، فهذه تلقَّن للعقل تلقيناً عن طريق الوحي، ويكون دور العقل أن يعقلها، لا بطريق التجربة المباشرة، ولا بطريق الحس، ولكن عن طريق التيقن من صدق الخبر وصدق المُخْبِر، وهو مدعو الى القيام بعملية التيقن هذه بكل الوسائل التي يملكها... وهي مُؤدية إلى الغاية الصحيحة حين يستقيم العقل على الطريق[1].

وإذا تجاوزنا الأمور والجوانب التي لم يزوِّد الله سبحانه وتعالى الإنسان بالقدرة على الإحاطة بها ـ بماهيّتها أو بكيفيتها، وإن كان موهوباً أن يدرك إمكانها ـ لأنها لا تدخل في حدود طبيعته البشرية المحدودة، أو لأنها لا تلزم له في النهوض بوظيفته المحددة له في هذه الأرض، وهي وظيفة الخلافة، ومن ذلك:

كل ما يتصل بعالم الغيب، ومن ذلك مسألة كُنْه الذات الإلهية، والروح وعلم الساعة (القيامة) وغيرها مما يتصل بعالم الغيب المطلق المحجوب عن الإنسان، والتفكر في القدر، أو وضع التشريعات والأحكام من دون الله... إذا تجاوزنا هذه الأمور والجوانب، فكل المجالات الأخرى مباحة للعقل ومتاحة

---

(١) مذاهب فكرية معاصرة، للأستاذ محمد قطب ص ٥٣١، ٥٣٢. ويقول شيخ الاسلام ابن تيمية: «والرسل جاءت بما يعجز العقل عن دركه، لم تأت بما يُعلم بالعقل امتناعه، لكن المسرفون فيه: قضوا بوجوب أشياء وجوازها وامتناعها لحجج عقلية بزعمهم، اعتقدوها حقاً، وهي باطل، وعارضوا بها النبوات وما جاءت به، والمعرضون عنه: صدّقوا بأشياء باطلة ودخلوا في أحوال وأعمال فاسدة وخرجوا عن التمييز الذي فضّل الله به بني آدم على غيرهم». مجموع الفتاوى: ٣/٣٣٩، وانظر ايضاً: ٥/٣٠، والجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح: ٣/١٣٠ ـ ١٣٤، عقيدة المسلم للشيخ محمد الغزالي ص ٤٩، مدخل الى الثقافة الإسلامية د. محمد رشاد سالم ص ٢٤٢، مقدمة في اسباب اختلاف المسلمين وتفرقهم تأليف محمد العبدة ص ٦٨ ـ ٧٠.

له، بل هو ـ في الإسلام ـ مدعوٌّ إلى التفكر والتأمل فيها دعوة صريحة، ويعتبر مقصِّراً إذا لم يقم بها.

● وهناك خمسة مجالات رئيسية يُدْعىٰ العقل للتعرف عليها والعمل فيها في ظل الإسلام:

أولاً: تدبُّر آيات الله في الكون للتعرف على قدرة الله المعجزة وتفرُّده بالخلق والتدبير والهيمنة والسلطان، بما يؤدي إلى إخلاص العبادة لله سبحانه وتعالى، وحده، وطاعته فيما أمر به ونهى عنه.

ثانياً: تدبر آيات الله في الكون للتعرف على السنن الكونية، التي يجري بها قدر الله، لتحقيق التسخير الرباني لما في السموات وما في الأرض للإنسان، من أجل تعمير الأرض والقيام بالخلافة فيها.

ثالثاً: تدبر حكمة التشريع الرباني، لإحسان تطبيقه على الوجه الأكمل، والإجتهاد فيما أذن الله تعالى فيه للعباد بالإجتهاد.

رابعاً: تدبر السنن الربانية التي تجري الأمور بمقتضاها في حياة البشر لإقامة المجتمع الإيماني الراشد الذي يريده الله.

خامساً: تدبر التاريخ وأحداثه وأيام الله لأخذ العبرة واستقامة السلوك الإنساني[1]..

الطريق الثالث:

الخبر الصادق، أو خبر الصادق، وهو على نوعين:

النوع الأول: الخبر المتواتر، الثابت على ألسنة قوم لا يتصور اتفاقهم على الكذب. وهو يفيد العلم القطعي من غير شبهة، وهو بالضرورة والبداهة

(١) انظرها بالتفصيل في: مذاهب فكرية معاصرة ص ٥٣٣ ـ ٣٥٣، خصائص التصور الاسلامي ص ٥٤ ـ ٦٠.

العقلية يوجب العلم الضروري دون توقف على استدلال[1].

وإننا لو رجعنا إلى أنفسنا، نجد أن لنا علماً بوجود أشياء كثيرة، كالأشخاص والأشياء في الأزمنة الخالية والبلدان النائية. . . وطريق علمنا هو هذا الخبر المتواتر بوجود أولئك الأشخاص وتلك الأشياء.

والنوع الثاني من الخبر: هو خبر الرسول ﷺ، وهذا يوجب العلم الاستدلالي الحاصل بالنظر في الدليل.

والعلم الثابت بهذا الطريق يضاهي العلم الثابت بالضرورة كالمحسوسات اليقينية القطعية والمتواترات والبدهيات، يضاهيها في التيقن والثبات. وخبر الرسول ﷺ يفيد العلم اليقيني بما أخبر عنه بالنظر إلى نفسه، وما ثبت في

---

(١) العلم ينقسم الى قسمين: قديم وحادث. فالعلم القديم هو العلم القائم بذاته تعالى، ولا يشبه بالعلوم المحدثة للعباد، والعلم المحدث ينقسم الى ثلاثة اقسام: بديهي وضروري واستدلالي. فالبديهي: ما لا يحتاج الى تقديم مقدمة كالعلم بوجود نفسه، وأن الكل أعظم من الجزء. والضروري: ما لا يحتاج فيه الى تقديم مقدمة كالعلم الحاصل بالحواس الخمس، والاستدلالي: ما يحتاج الى تقديم مقدمة كالعلم بوجود الخالق وحدوث الكون.

انظر، التعريفات، للسيد الجرجاني ص ١٣٦.

اما السمرقندي فإنه يقسم العلم المحدث الى نوعين: ضروري واستدلالي، يقول: اعلم ان العلم المحدث نوعان: ضروري واستدلالي:

فالضروري: ما حصل في العالم بإحداث الله تعالى وتخليقه، من غير أن يكون للعالم فيه فعل الكسب والاختيار ولا قدرة التحصيل والتَّرْك.

والاستدلالي: ما حصل في العالم بإحداث الله تعالى وتخليقه، وللعالم فيه فعل الكسب والاختيار وقدرة التحصيل أو الترك. . .

ثم العلم الضروري أنواع ثلاثة:

العلم الحاصل بالحواس الخمس ـ والعلم الحاصل بالأخبار المتواترة، نحو العلم بالبلدان النائية والأمم الماضية. ـ والعلم الحاصل ببدائه العقول من غير تأمل ونظر في الأصول، كعلم الانسان بوجود نفسه وما يحدث فيه من الألم واللذة، وأن كلَّ الشيء أكبر وأعظم من جزئه، ونحو ذلك.

وأما العلم الاستدلالي: فنوعان عقلي وسمعي. فالعقلي ما يعرف بمجرد العقل بالتأمل والنظر في المحسوسات والبدائه من غير واسطة الدليل السمعي كالعلم بحدوث العالم.

والسمعي ما يعرف بالنظر العقلي في المسموعات، ولا يعرف بالعقل وحده بدون واسطة السمع، كالعلم بالحلال والحرام وسائر ما شرع الله تعالى من الأحكام. والعلم العقلي يفيد =

نفسه، دون حاجة إلى أدلة خارجية[1].

وبعد هذا العرض لمصادر المعرفة وطرق العلم بعالم الغيب والشهادة، ندرك خطأ الذين يعتمدون على مصدر واحد فقط، كالذين يعتمدون على الحواس فقط للتصديق بصحة الأشياء أو الحكم عليها.

وندرك أيضاً خطأ الذين يسقطون هذه الحواس من حسابهم، كما ندرك خطأ الذين يحاولون هدم دور العقل بإطلاق، كالصوفية الذين يعتمدون على الذوق وعلى المواجيد الخاصة عندهم، ولا يقل عن أولئك، في الخطأ، الذين يغالون في تقدير قيمة العقل وإعلائه حتى إنهم ليجعلونه حاكماً على نصوص الشرع، فترى أحدهم يرفض بعقله القاصر المحدود حكماً شرعياً ثابتاً بحجة أن عقله لم يقتنع بذلك...

والخلاصة: أن الحواس والذوق الخاص والمقررات العقلية البحتة والرؤى والمنامات كلها ليست من مصادر المعرفة على إطلاقها، أما الذوق والرؤى أو المنامات فهي ليست أيضاً مستنداً لأحكام شرعية في الإسلام، بالنسبة لنا معشر البشر. أما رؤى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فهي نوع من الوحي الذي يفيد العلم اليقيني القطعي.

= العلم قطعاً ويقيناً، أما السمعي فمنه ما يفيد القطع ومنه ما يفيد الظن ويوجب العمل لا العلم... انظر: ميزان الأصول في نتائج العقول للشيخ علاء الدين السمرقندي ص ٨ - ١٠.

(١) درء التعارض.. ؛ ٧/٣٢٥، مجموع فتاوى شيخ الاسلام: ٤/٣٠.



خصائص مصادر المعرفة

- تمهيد
- قيمة كلٍ من هذه المصادر ودوره
- وسيلة التعرف على عالمي الغيب والشهادة
- الصراع بين الدين والعقل والحس في الفكر الاوروبي
- التوازن بين مصادر المعرفة في الاسلام



خصائص مصادر المعرفة وقيمتها

تمهيد:

لاحظنا أن مصادر المعرفة وطرق العلم بالنسبة لعالمي الغيب والشهادة في الفكر الإسلامي تنوعت إلى طرق ثلاثة، ولكل منها مجال للعمل والحكم، كما أن لكل منها خصائص من حيث الشمول واليقين.

فالخبر الصادق يتناول الكليّات والمعيّنات، والشاهد والغائب، فهو أعم وأشمل من الطريقين السابقين: الحس والنظر أو العقل. لكن الحسَّ والعيان أتم وأكمل، وفي الحواس نفسها قد تختلف الأنظار.

● يقول شيخ الإسلام ابن تيمية، رحمه الله[1]:

وقد تنازع الناس في السمع والبصر أيهما أكمل؟

والتحقيق في هذا الباب: أن العيان أتم وأكمل، والسماع أعم وأشمل. فيمكن أن يعلم بالسماع والخبر أضعاف ما يمكن علمه بالعيان والبصر أضعافاً مضاعفة.

ولهذا كان الغيب كله إنما يعلم بالسماع والخبر، ثم يصير المغيَّب شهادة، والمخبر عنه معايناً، وعلم اليقين حقَّ اليقين.

---

(١) درء تعارض العقل والنقل: ٧/٣٢٢ ـ ٣٢٦.

● والمقصود هنا: أن الخبر أيضاً لا يفيد إلا مع الحس أو العقل، فإن المخبر عنه إن كان قد شوهد كان قد علم بالحس، وإن لم يكن شوهد فلا بد أن يكون قد شوهد ما يشبهه من بعض الوجوه، وإلا لم يُعْلم بالخبر شيء. فلا يفيد الخبر الا بعد الحس والعقل، فكما أن العقل بعد الحس، فالخبر بعد العقل والحس، فالإخبار يتضمن هذا وهذا. وكما أنه ليس كل ما علم بالقياس والعقل والاعتبار يمكن الإحساس بواحدٍ واحد من أعيانه، فكذلك ليس كل ما علم بالخبر والسماع يمكن اعتباره بالقياس، إما لعدم النظير له من كل وجه، وإما لغير ذلك.

ثم إذا كان الخبر صادقاً لا كذب فيه أُمِنَ معه من الانتقاض والفساد، بخلاف القياس، فإن كثيراً مما يُبْنَىَ فيه على قضايا كلية تكون منتقضة، وإن كان فيه ما ليس منتقضاً.

فليس كل شيء يمكن علمه بالقياس، ولا كل شيء يحتاج فيه إلى القياس، ولهذا قال الأئمة: ليس في المنصوصات النبوية قياس، ولا تُعارض بالأمثال، ولا تُدْرك بالعقول.

فأما كونها لا تعارض بالأمثال المضروبة، فهذا يعني: أن المنصوص الصريح لا يعارضه دليل عقلي صحيح، وأما أنها لا تدرك بالعقول: فإن نفس الغريزة العقلية التي تكون للشخص قد تعجز عن إدراك كثير من الأمور، لا سيما الغائبات، فمن رام بعقل نفسه أن يدرك كل شيء كان جاهلاً، لا سيما إذا طعن في الطرق السمعية النبوية الخبرية[1].

---

(١) ولذلك جاء التحذير من أن يتكلم المرء في أصول الدين، بل وفي غيرها، بغير علم قال الله تعالى: **﴿ولا تقف ما ليس لك به علم، إن السمع والبصر والفؤاد، كل أولئك كان عنه مسؤولاً﴾** [الاسراء، الآية: ٣٦]، **﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير﴾** [الحج، الآية: ٨] **﴿إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس، ولقد جاءهم من ربهم الهدى﴾**. [النجم، الآية ٢٣]. وما أحسن المثل المضروب للنقل مع العقل، وهو أن العقل مع النقل كالعامي المقلد مع العالم المجتهد!

انظر: شرح العقيدة الطحاويه: ١٧٩ وما بعدها، ففيه تفصيل واف لوجوب التسليم =

وسيلة التعرف على عالمي الغيب والشهادة:

وإذا كنا نتعرف على عالم الشهادة بتلك الطرق الثلاث السالفة، لأن الله سبحانه وتعالى قد زودنا بهذه الأدوات التي نستخدمها للتعرف عليه، فإن عالم الغيب لا نستطيع التعرف عليه بحواسنا هذه، لأنه، حال كونه غيباً، لا يقع تحت الحواس ولا يخضع للتجربة المادية، وإنما نستدل عليه بالخبر اليقيني الصادق الذي جاءنا عن طريق الوحي، إذ الفطرة السليمة المؤمنة تتلقى معرفة ذلك بالتسليم، كما نستدل على وجوده أيضاً بالآثار التي تدل عليه، إذ الأثر يدل على المؤثر[1].

● وإذن فكل طريقة من تلك الطرق السابقة يمكنها أن تفتح لنا نافذة لمعرفة جانب من جوانب العالم، وكل وسيلة تكمِّل الأخرى، وتؤكدها، إن تواردتا معاً على جانب معين، وليس هناك أي مسوّغ لجحد طريقة من أجل العناية بأخرى، أو نشوب صراع بينهما، كما حدث في الفكر الجاهلي الغربي.

الصراع بين العقل والدين والحس في الفكر الأوروبي:

يقول الدكتور محمد البهي، رحمه الله:

«مضت على التفكير الأوروبي، منذ القرن الرابع عشر إلى الآن، مراحل شهدت فيها العقلية الأوروبية صراعاً فكرياً، واتجاهات عقلية مختلفة تدور حول

= لنصوص الوحيين، القرآن والسنة، والتحذير من الكلام في الدين بغير علم، مع بيان لقيمة العقل ودوره، وأثر ذلك كله.

(١) عقد العلامة ابن خلدون في الباب الأول من مقدمته المشهورة المسألة السادسة في أصناف المدركين للغيب من البشر، الذين يخبرون عن الغيب مما يعطي علماً يقينياً كالأنبياء عليهم الصلاة والسلام ـ وفيه فسّر حقيقة النبوة والوحي، وذكر اصناف من يخبرون عن ذلك من البشر العاديين فذكر الكهانة والرؤيا والحساب.. ثم قال: وإدراك هؤلاء مشوب فيه الحق بالباطل لأنه لا يحصل لهم الاتصال، وإن فقدوا الحس، إلا بعد الاستعانة بالتصورات الأجنبية.. ومن ذلك يجيء الكذب في هذه المدارك.. ويدّعون معرفة الغيب، وليس منه على الحقيقة. انظر المقدمة ١٥٩ ـ ٢٠٩.

«تبرير» مصدر من مصادر المعرفة التي عرفتها البشرية في تاريخها حتى الوقت الحاضر، وهي: الدين والعقل والحس أو الواقع.

وفي كل مرحلة من هذه المراحل ينشأ سؤال عن قيمة أي واحد من هذه الثلاثة كمصدر للمعرفة المؤكدة أو اليقينية، ثم يكون الجواب على هذا السؤال إيجاباً أو سلباً. ومن السؤال وما يدور حوله من جدل وأخذ ورد تتكون المذاهب الفلسفية التي تعبِّر عن قيمة المصدر الذي وضع للاختبار والتقدير»[1].

وبانتهاء القرن الثامن عشر وظهور فجر القرن التاسع عشر الميلادي تميَّز الفكر الأوروبي بالاتجاه نحو التفكير الوضعي وسيادة الطبيعة على الدين والعقل معاً، فكانت الوضعية، كنظرية فلسفية في دائرة المعرفة، هي المذهب السائد في الفكر الأوروبي، لمعارضة الكنيسة الكاثوليكية في أوروبا ومعارفها الدينية، فما لا يقع تحت الحواس، ينبغي ـ بنظرهم ـ أن يكون خارجاً عن دائرة الإيمان، لأنه غير قابل للتفسير، ولا يخضع للتجربة الحسية، إذ يرى المذهب التجريبي الذي عُرف به الفيلسوف الاسكتلندي هيوم (١٧١١ ـ ١٨٨٦)، والذي نشأت عنه الفلسفة الوضعية = أن تحصيل الإنسان للحقائق الكونية ومعرفته بها لا يكون إلا بالتجربة الحسية وحدها.

ومعنى ذلك: أن الحس المشاهد ـ لا غيره ـ هو مصدر المعرفة الحقيقية اليقينية. ففي العالم الحسي تكمن حقائق الأشياء. أما انتزاع المعرفة مما وراء الظواهر الطبيعية الحسية، والبحث عن العلة في هذا المجال، فأمر يجب أن يُرْفض، ولهذا تكون كل نظرية، أو كل فكرة عن وجودٍ له طابع الحقيقة واليقين ـ فيما وراء الحس ـ نظرية أو فكرة مستحيلة»[2].

ولذلك يرى أوغست كونت أن تعاليم الأديان يمكن تلخيصها في معتقدين: الله والخلود.

---

(١) الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي د. محمد البهي ص ٢٤٩.
(٢) الفكر الاسلامي الحديث، د. محمد البهي ص ٢٣٣.

ثم يستخلص فكرة واحدة شاملة هي الإنسانية. فالإنسانية هي الفكرة الوضعية المتطورة لفكرتي: الله والخلود.

ويعتقد كونت أن الإنسانية إذا فُهِمَتْ على هذا النحو فإنها تكون هي نفسها الإله الذي ينشده الناس.

وبذلك يصل كونت إلى هدفه المراد: وهو إلغاء العقائد الدينية الغيبية وكل ما يتصل بها من أخلاق ونظم اجتماعية، واعتبارها أفكاراً وأوهاماً غير واقعية وغير نافعة، وإنما تعبر عن الصورة غير المكتملة للإنسانية في مرحلة دنيا من مراحل تطورها[1].

ويذهب ماكس مولر، أيضاً، إلى أنه لا شيء يتحقق في عقيدة الإنسان ما لم يكن قد أتى من قبل عن طريق حواسه[2].

وإذن فقد سجن الإنسان ـ الأوروبي ـ نفسه بطريقة تحكميَّة في حدود حواسه الخمس منذ عهد النهضة[3].

التوازن بين مصادر المعرفة في الإسلام:

ولئن تأرجح الفكر الغربي في نظرته لمصادر المعرفة وتغليب واحد منها على الآخر، إلى درجة إنكاره أو إنكار قيمته العلمية ـ كما رأينا ـ . . . إن الإسلام ـ وهو منهج الله تعالى للبشرية الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ـ قد رسم للإنسان منهجاً متكاملاً متوازناً في المعرفة ومصدرها، يخاطب فيه جميع مكوناته ويستثير كل منافذ الحس والفكر والروح، لتتعانق كلها وتأخذ بيده، فتضعه على الجادة من طريق المعرفة واليقين.

---

(١) لمعرفة نظرية كونت وأضرابه بالتفصيل وللرد عليها، انظر: العلمانية، نشأتها وتطورها للشيخ سفر بن عبد الرحمن الحوالي ص ٣٧٧ ـ ٣٨٠، الفكر الاسلامي، د. محمد البهي ص ٢٣٣ ـ ٢٣٧، الدين، بحوث ممهدة. . د. محمد عبد الله دراز ص ٨٤ ـ ٨٦.

(٢) نشأة الدين، د. علي سامي النشار، ص ٧٠ ـ ٧١.

(٣) تأملات في سلوك الإنسان، د. الكسيس كاريل ص ١٦٢.

● فالإسلام لم يهمل أو يغفل مصدراً واحداً من مصادر المعرفة، كما أنه لم يبرِزْ دوره على حساب سائر المصادر الأخرى ليلغيها أو يلغي واحداً منها، وإن كان يعطي كلاً حقه ويحدد له المجال الذي يعمل فيه.

«والنظرية الإسلامية تؤمن بإمكان المعرفة وبصحة استخدام وسائلها في المجالات المشروعة لها وبالتالي بإمكانية اليقين»(١).

● وفي كيان الإنسان طاقتان فطريتان: الإيمان بما تدركه الحواس، والإيمان بما لا تدركه الحواس، وكلتاهما طاقة إنسانية أصيلة، فالحيوان لا يؤمن بشيء من الأشياء، ومع ذلك فالإيمان بما تدركه الحواس ليس هو مزية الإنسان العظمى، إذ هو أقرب في طبيعته للطاقة الحسية المشتركة بين الإنسان والحيوان، أما القدرة على الإيمان بما لا تدركه الحواس فهو المزية الأساسية للكائن البشري، والموهبة العظمىٰ التي وهبها الله تعالى للإنسان(٢).

● فإذا كانت الحواس منافذ يتعرف الإنسان بواسطتها على العالم المُحَسّ من حوله بالتجربة لكل ما يخضع للتجربة المادية، فإن العقل له دوره في الحكم على كل ما يستطيع أن يحكم عليه بحدود طاقته وبحكم محدوديته في الزمان والمكان والكيفية.

أما ما وراء ذلك من عالم الغيب، ومما لا يقع تحت الحواس، ويعجز العقل البشري ـ رغم مكانته وقدرته ـ عن تفسيره والوصول إلى حقيقته، فإن الوحي هو الذي يحيط علماً بكل هذا. ولذلك يقوم الإسلام والإيمان على أساس التصديق بالنبوة والوحي، وبهذا يستطيع من يهتدي بالعقل أن يفسر هذا الوجود تفسيراً صحيحاً، وأن يصحح نظرته للكون والحياة والإنسان(٣).

ولذلك لم يهمل الفكر الإسلامي قيمة واحد من مصادر المعرفة وطرق

---

(١) الاسلام والعلم ص ١٧، منشور بمجلة حضارة الاسلام بدمشق، شوال ١٣٨٥ هـ.
(٢) منهج التربية الاسلامية، للأستاذ محمد قطب: ١/١٥٥.
(٣) انظر: خصائص التصور الاسلامي للأستاذ سيد قطب، والتصور الاسلامي للكون والحياة والإنسان: عثمان جمعة ضميرية.

العلم، فهو يؤكد عليها كلها مجتمعة، ولكلٍ منها مجاله، وإن كان الوحي هو الذي يحكم عليها كلها ويعطي حكماً قاطعاً في كل ما يحكم عليه.

● وحتى المنهج العلمي التجريبي والاعتماد على الحس له مكانته في الفكر الإسلامي، وفي كتاب «التقريب في حدود المنطق» يؤكد ابن حزم أن الحسّ أصل من أصول العلم. وابن تيمية يبيّن في كتابه المسمىٰ «نقد المنطق» أن الاستقراء هو الطريقة الوحيدة الموصلة إلى اليقين. وهكذا قام المنهج التجريبي القائل بأن الملاحظة والتجربة هما أساس العلم وأصله، لا التفكير النظري المجرد. فالزعم بأن أوروبا هي التي استحدثت المنهج التجريبي زعم خاطىء، وقد اعترف بهذه الحقيقة أساطين العلماء والمؤرخين للحركة العلمية والمنهج العلمي[1].

(١) تجديد التفكير الديني في الاسلام تأليف محمد اقبال، ترجمة عباس محمود ص ١٤٨.

العلم وحدود المنهج التجريبي

- تمهيد
- أقوال رجال العلم والمنهج التجريبي
- طرائق ومراحل المنهج العلمي التجريبي
- حدود العلم والمنهج التجريبي



حدود العلم والمنهج التجريبي

تمهيد:

افتتن الناس، في العصر الحديث، بما يسمى بالمنهج العلمي التجريبي، وأصبح كثير من الناس يديرون هذه الكلمة على ألسنتهم ويتشدَّقون بها، ويحسبون أن العلم والمنهج العلمي التجريبي يستطيع أن يحكم على كل شيء في هذا الوجود، وأن كل ما لا يخضع لهذا المنهج التجريبي يكون خرافة أو وهماً، لا ينبغي الإيمان به.

ولذلك أجد أنه من الضرورة بمكان أن نحدد معنى العلم والمنهج العلمي وحدود هذا المنهج بكلمات موجزة، كما نجده عند أصحاب المنهج العلمي نفسه والمشتغلين بهذه العلوم، لأن ذلك سيحدد المجال الذي يمكن للعلم التجريبي أن يعمل فيه، ويلقي الضوء على موقف العلم نفسه من عالم الغيب.

العلم وحدوده من خلال أقوال العلماء:

نعرض فيما يلي طائفة من أقوال أساطين رجال العلم والفلسفة من أهل أوروبا، الذين تقدم العلم المادي على أيديهم أشواطاً كثيرة، وبهم افتتن كثير من أهل الشرق المسلم:

١ ـ يقول هكسلي:

«العلم، فيما أعتقد، ليس سوى الذوق الإنساني بعد تربيته وتنظيمه، ويطلب هذا العلم حقائق الكائنات الطبيعية بواسطة الحواس، مع الاستعانة بجميع ما عرف لهذا العهد من أنواع الآلات العجيبة المدهشة، مثل المناظير المكبِّرة (ميكروسكوب) والمناظير المقربة (تلسكوب)، وهل أقيمت اكتشافات كبلر ونيوتن إلا على تلك القواعد الثابتة، قواعد الشهود بهذه المناظير؟».

٢ ـ ويقول الاستاذ بلفور في خطبة له:

يتوقف «العلم» في تحصيله والتثبت منه على المقاييس، فكل ما لا يقبل القياس من الأشياء، فهو خارج أو يكاد يكون خارجاً عن حدوده الطبيعية، ومعلوم أن الحياة والجمال والسرور.. ليست مما يقاس ـ بمقاييس العلم المادي ـ فهي إذن لا تكون من موضوعات «العلم».

٣ ـ ويقول الاستاذ وندل:

«العلم ـ سواء استعان بالآلات أم لم يستعن ـ عماده ما يلاحظه الإنسان ويحسه من الكائنات، وما تهديه إليه في المعامل الكيميائية والمعامل الطبيعية التجاريبُ والآلاتُ، التي تمكّنه من انتزاع غوامض أسرار الطبيعة من مكامنها العميقة، مع بلوغها من الدقة والضآلة، ما يكاد يحجبها عن أبصار الرائين.

وإذا أردنا أن نبحث في باطن النظام الآلي للطبيعة أو في خارجه، أو قَصَدْنا معرفة ما انبعث عنه هذا النظام وكيف كان مصيره، أو حاولنا أن ندرك كُنْهَ هذا الكون ومبلغ شعورنا به، ولِمَ وجد، ولِمَ خُلِقنا نحن هنا؟

إذا أردنا ذلك، فإن العلم الحديث ليس لديه جواب عن شيء منه، إذ لا دخل لشيء من ذلك، في الحدود المصطلح عليها للعلم.

وإذا كان لا علاقة للعلم الحديث بشيء من تلك المباحث، ولا جواب لديه عن أمثال ما قدَّمْنا من الأمثلة، فليس ـ بالطبع ـ لأحد ممن يتكلمون باسم العلم أن يدعي أن «العلم» أقام البرهان على عدم وجود الله، أو أنه ليس هناك أرواح، أو أن هنالك، أو ليس هنالك، بعد هذه الحياة الدنيا بعث ولا نشور،

ولا جنة ولا نار الخ . . . »[1].

● وبعد، فإنه يكون من الجهالة العلمية إذن، وقد رأينا مفهوم العلم وفلسفته وحدوده، أن يطلب أحد من الناس دليلاً علمياً على كل شيء ينبغي معرفته أو الإيمان به، إذ للعلم مجال محدد يستطيع أن يعمل فيه، وما عداه فهو خارج عن نطاق اختصاصه، يدفعه العلم دفعاً بعدم الاختصاص، كما يقول القانونيون مثلاً!!.

إن «العلم» يعني تلمس «الحقائق» في عالم الحس، وأساس العلم هو الرصد والقياس باستخدام الحواس، ثم معالجة نتائج ذلك القياس بالقوى العقلية.

● وإذن فعالم ما وراء الحس لا دخل للعلم به، اللهم إلا ما يمكن إخضاعه من عالم ما وراء الحس إلى مستوى الحس بواسطة الآلات والأجهزة، مثل الأبرة الممغنطة أو البوصلة التي تستخدم في التعرف على اتجاهات خطوط قوى المجال المغناطيسي الذي لا نحس نحن به ولا نراه، ولكن تستجيب له الإبرة الممغنطة، ومثل الأشعة السينية التي لا تدركها الأبصار، ولكنها تؤثر على الألواح الحساسة والفوتوغرافية[2].

طرائق العلم وأساليب المنهج العلمي ومراحله:

يقوم المنهج العلمي على الملاحظة المنظَّمة التي يتم فحصها بصورة دورية، ثم توضع نظرية لتفسير هذه المعلومات التي نلاحظها، ومن ثم نستخلص القواعد والقوانين التي يمكن تحقيقها، بمحاولة تطبيقها في تجارب مكررة حتى يتأكد ثبوتها، فتصل إلى ما يسمى بالحقيقة العلمية اليقينية، فتكون عندئذ قانوناً عاماً كاشفاً لقانون الفطرة، أي لسنن الله في الكون. وإذا تأيدت انطبقت على

---

(١) هذه النصوص منقولة عن كتاب: الإسلام دين الفطرة للشيخ عبد العزيز جاويش ص ١٧٧ - ١٧٨.

(٢) الله والكون، للدكتور محمد جمال الدين الفندي ص ٥٥.

القانون الطبيعي (الفطرة)، فإذا تنافرت معها فهي لا تكـون حقيقة ثـابتة، بـل تخضع للتغيير[1].

● ويقول أحد المشتغلين بالعلم والمنهج العلمي التجريبي:

يهدف العلم إلى تصميم صورة بنائية للعالم المادي، تفسر كل ما يجـري فيه، وتنبىء عما سيؤول اليه حاله مستقبلاً. وقد توصل العلم إلى عـدد من الحقائق، وذلـك بملاحـظة ما يجـري من أحداث في هـذا الكون، وبـاجراء تجـارب معدة إعـداداً خاصـاً، ثم تجميع نتـائجها. ويتم تـرتيب وتصنيف تلك الحقـائق عـلى أساس منطقي بقدر الإمكان، وعندما تؤدي مشاهدات وتجـارب من نفس النوع إلى نتائج متشابهة، فإنه يمكن التعبير عن تلك النتائج بمنطوق موحَّد أو قانون.

فمثلاً: دلت المشاهدات في كثير من التجارب الكيميائية التي توزن فيها المواد المتفاعلة والمواد الناتجة من التفاعل على أن أوزان المواد التي تستنفد في تفاعلٍ ما ـ وتتلاشى ظاهرياً ـ تكون مساوية لأوزان المواد الناتجة من التفاعل.

ولسنا بحاجة إلى سرد نتائج كل تجربة من تلك التجـارب على حـدة، إذ إنه من الممكن تلخيصها بالقانون الآتي:

«لم يـلاحظ أي تغـير في الـوزن الكـلي للمـواد التي تشـترك في تفـاعـل كيميائي»...

● هذا، ويجب ملاحظة:

١ ـ أن نص القانون ينصب فقط عـلى نتائـج التجارب العمليـة، ولا شأن لـه بافتراض نظريات أو آراء ما لم تَبْدُ هذه بديهية لأول وهلة.

٢ ـ إذا أعيد إجراء تجربة ما عدة مرات فقلّما تتفق النتائج اتفاقاً تاماً، ويرجـع

---

(١) انظر بحثاً للدكتور زغلول النجار عن اعادة كتابة العلوم من وجهة نظر إسلامية، قدّمـه لمؤتمر التضامن الاسلامي في مجالات العلم والتكنولوجيا ـ بالريـاض عام ١٣٩٥ هـ، منشـور بمجلة المجتمع الكويتية، مقدمات المناهج ـ للأستاذ أنور الجندي ص ٢٩.

ذلك إلى أن الظروف التي تجري تحتها تجربة ما لا يمكن إعادتها بالضبط في تجربة أخرى، هذا من جهة، ومن جهة أخرى: فإن التقدير الشخصي للباحث الذي يقوم بالتجربة ـ وهو عامل لا يمكن التخلص منه تماماً ـ قلّما يكون تقديراً دقيقاً مطلقاً، مهما كانت درجة عنايته ومهارته.

وإذا كانت هذه الاختلافات في نتائج التجارب طفيفة، إلا أنها دائماً موجودة ولا شك، مهما كان المجرب على درجة كبيرة من المهارة، ومهما كان الجهاز المستخدم حسن الصنع والتصميم[1].

وبمعنى آخر: فإن القانون في منطوقه يسبق النتائج التي تصل اليها التجارب، لأن القانون يأتي منصباً في نصِّه على الحالة المثالية التي تقترب منها النتائج، وقد يكون عدد التجارب التي بُني عليها القانون كبيراً جداً إلا أنها في الواقع لا تمثل إلا جزءاً يسيراً من مجموع الحالات التي تدخل في نطاقه.

ومع ذلك: فالمفروض أن تطبيق القانون عام شامل، وأنه يمثل نتائج كل ما يمكن تصوره من التجارب المتعلقة به، سواء كان إجراؤها ممكناً أم غير ممكن.

وبذلك يمكن تعريف القانون بأنه: «ملخص النتائج المثالية لعدد كبير من التجارب والمشاهدات».

وعندما تثبت صحة مجموعة مترابطة من القوانين يوضع فَرَض أو نظرية لتفسيرها... ويختلف الفرض عن القانون في أنه يعبر عن آراء من الصعب إخضاعها للتجربة المباشرة[2]...

● ومن هذا العرض لحقيقة العلم وطرائقه وأساليبه في البحث تتضح حدود المنهج العلمي التجريبي وقيمته، ويتضح المجال الذي يعمل فيه والمجال الذي لا يستطيع أن يعمل فيه لأنه لا يقع تحت التجربة المادية المباشرة، فهو خارج

---

(١) الكيمياء العامة وغير العضوية، تأليف ب.ج. ديرانت، ترجمة د. سامي طوبيا وآخرين ومراجعة: د. رشاد رزوق، جـ ١ ص ١ و٢، منشور ضمن مجموعة الكتب التي يشرف على اعدادها المجلس الاعلى للعلوم بالقاهرة.

(٢) المرجع نفسه ص ٢ و٣.

عن نطاق اختصاصه، وفي هذا وضع للأمور في نصابها وفي وضعها الطبيعي المناسب لها، حتى لا يتشدق أحد باسم العلم والمنهج العلمي لينكر ما لا يقع تحت حواسه أو لا يخضع للتجربة المادية.

حدود المنهج العلمي التجريبي:

ونستطيع أن نبرز النقاط التالية التي تلخص لنا حدود العلم المادي والمنهج العلمي التجريبي[1]:

١ ـ مهما كانت المشاهدة، أو التجربة[2] والمشاهدة، مباشرة، فإنها لا تعدو أن تكون مظهراً خارجياً للحقيقة الواقعية[3]، وليست للحقيقة ذاتها، والفرق كبير بين إدراك الأشياء الخارجية ومعرفة حقائقها.

فمهمة العلم المادي التجريبي محدودة بالعالم المادي الذي هو عالم الشهادة وحده، وما سوى ذلك خارج عن نطاق اختصاصه.

يقول العلامة المفكر محمد اقبال رحمه الله:

«إن الطبيعيات ـ بوصفها علماً تجريبياً ـ تبحث في الأشياء الواقعة تحت التجربة ـ أعني التجربة الحسية ـ فالعالم الطبيعي يبدأ وينتهي بالظواهر الحسيّة، التي بغيرها يستحيل أن يتحقق من صدق نظرياته.

وقد يفترض وجود ذوات لا يدركها الحس، كالذرّات مثلاً، ولكنه إنما يفعل ذلك لأنه لا يستطيع أن يفسر التجربة الحسية بغيره، فالطبيعيات تدرس العالم المادي أي العالم الذي تكشفه الحواس.

---

(١) هذه النقاط الست الأولى عن الدكتور زغلول النجار، في بحثه السابق، مع شيء من التصرف والزيادة في بعض النقاط والأمثلة التي اشير الى مراجعها في موطنها.

(٢) للتعرف على قيمة التجربة ومدى الإعتماد عليها وحدودها؛ انظر: موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين، الجزء الثاني، للشيخ مصطفى صبري.

(٣) قال الله تعالى: ﴿**يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا، وهم عن الآخرة هم غافلون**﴾[سورة الروم، الآية: ٧].

أما الحركة العقلية التي يتضمنها هذا الدرس، وكذلك التجربة الدينية، وتجربة الإحساس بالجمال، فهي وإن كانت جزءاً من جملة التجربة، فإنها أمور خارجة عن ميدان الطبيعيات لسبب ظاهر؛ هو أن الطبيعيات مقصورة على درس عالم المادة، ونعني به عالم الأشياء المحسوسة. ولكني حين أسألك عن الأشياء التي تدركها في عالم المادة، تذكر، بالطبع، الأشياء المألوفة حولك كالأرض والسماء والجبال والكراسي والموائد.. الخ فإذا سألتك ما الذي تبغيه من هذه الأشياء على وجه الدقة، فإنك تجيب: بأنك تدرك صفاتها. ومن البيِّن أننا عندما نجيب عن سؤال كهذا، نضع في حقيقة الأمر تأويلاً لشهادة الحواس. وهذا التأويل يقوم على التفرقة بين الشيء وصفاته، ومردّه في الواقع إلى نظرية في المادة، أي في طبيعة أسس الحس وعلاقتها بالفعل المدرك وعللها البعيدة[1].

٢ ـ من أمور الكون ما لا يمكن إدراكه بالحس المباشر أو غير المباشر، ولكن يمكن الاهتداء إليه بوجود شواهد على قرينة منطقية تكفي في الاستدلال على صحة الدعوى بوجوده (الاستنباط)[2]، وفي هذا تبرز حدود جديدة أخرى للعلوم التجريبية، متمثلة في حدود العقل البشري وقدرته على الاستنباط السليم.

٣ ـ العلم يشمل كلاً من الحقائق المحسوسة وغير المحسوسة[3]، وهذه الأخيرة لا يمكن تلقيها إلا عن طريق رسالات السماء والوحي.

٤ ـ إن الانسان في ملاحظاته وتجاربه ومشاهداته محدود بحدود وجوده على

---

(١) تجديد التفكير الديني في الإسلام، تأليف محمد اقبال، ترجمة عباس محمود، ص ٤٠ ـ ٤١.

(٢) انظر بالتفصيل: منهج البحث العلمي عند مفكري الإسلام واكتشاف المنهج العلمي في العالم الإسلامي، د. علي سامي النشار، ص ٢٦١ وما بعدها.

(٣) جاء في البحث كلمة المحسوس، وهي اسم مفعول من «حسّ» بمعنى استأصل أو قتل، قال الله تعالى: ﴿إذ تحسّونهم بإذنه﴾ والأصح أن نأخذ اسم المفعول من «أحسّ» بمعنى أدركه بحواسّه وعلمه، قال تعالى: ﴿فلما أحسّ عيسى منهم الكفر...﴾ وجاء الاستعمال للكلمة على ما هو شائع فحسب. وانظر: ترتيب القاموس المحيط: ٦٣٩/١، والمعجم الوسيط: ١٧٢/١.

الأرض في نقطة محدودة من الفضاء الكوني، وفي فترة زمنية معينة، فاستنتاجاته نسبية، وليست مطلقة، فاستنتاجات العلوم التجريبية لا تعدو أن تكون مظهراً للحقيقة، وليست هي الحقيقة ذاتها، فهي فروض قياسية محضه.

إذ يحاول العلم «أن يضع نموذجاً للطريقة التي يسير عليها الكون، والتي على أساسها يمكن أن تفسر ما يجري من أحداث، وطبيعي أن هذا النموذج نتيجة لتصورات العقل البشري، وسيظل دائماً كذلك، ولذا نتساءل: هل ما يجري حقاً في الكون من أحداث يتفق تماماً مع هذا النموذج! أم أن الأمور تجري على أسس أخرى لم يستوعبها العقل البشري بعد؟

الواقع أنه لا يمكن ترجيح رأي على آخر، سواء سلكنا طريق التفكير المنطقي أم اتبعنا طريق التجريب العملي.

وبقاء الحكم معلَّقاً بهذه الصورة مما يوحي بالشك في صحة النظريات العلمية، لا بد أن يعوق نمو المعرفة في جميع النواحي المألوفة، ويحدُّ من امتدادها إلى ميادين أخرى. لذلك فمن الضروري الاعتقاد بأن الفرض العلمي - إذا ما ثبتت صحته - لا بد أن يكون ممثلاً حقيقياً لما يحدث في الطبيعة من أمور. وهذا ما يسلِّم به جميع المشتغلين بالعلم»[1].

فنتائج العلوم إذن فرضيات افترض أنها تمثل ما يحدث في الكون من أجل نمو المعرفة العلمية وتقدمها. فهي ليست نتائج قطعية نهائية.

٥ - في ازدياد المعرفة للكون دائماً، والمراجعة لهذه المعرفة والتحوير فيها دليل على نقص معرفة الإنسان وعجزه دائماً.

فليس هناك حقائق نهائية قاطعة في العلم، ولا يقول العلم دائماً الكلمة النهائية في ما يعرض له من قضايا علمية، وكل يوم نسمع بجديد في آفاق العلم، وكم من النظريات العلمية التي كانت تدرس على أنها الكلمة النهائية في

(١) الكيمياء العامة وغير العضوية، تأليف ديرانت ج ١ ص ٣ و٤.

مجالٍ ما. . كم من هذه النظريات التي تغيرت من أساسها مع تقدم العلم.

يقول ول ديورانت: «أين ذهبت اليوم قوانين نيوتن العظيم حين قلب آينشتاين وميكوفسكي وغيرهما الكون رأساً على عقب بمذهب النسبية غير المفهوم؟

وأين مكان نظرية عدم فناء المادة وبقاء الطاقة في الميتافيزيقا المعاصرة وما يكتنفها من فوضى وتنازع مما أصاب علومنا؟ وهل فقدت فجأة قداستها وما فيها من حقائق أزلية، أيمكن أن تكون قوانين الطبيعة سوى فروض إنسانية؟

هذه الحقيقة التي يجهلها كثيرون، وهي أن القواعد العلمية الحديثة ليست سوى فروض قام الإنسان بوضعها لتفسير الغوامض التي تحيط به من كل جانب، وقد يكون نصيبها النجاح أو الفشل، وإذا أصابها النجاح فإلى أي مدىً وزمن مقدر؟

عندما ظهرت النظريات الجديدة التي أثبت العلم وجودها ببراهين رآها العلماء مقنعة ونسخت النظريات القديمة، وحلت محلها، فإذا بالجديدة تعجز عن تعليل بعض الظواهر»[1].

ويقول الكونت دي نوي: «إن القوانين العلمية قوانين نسبية للإنسان الذي هو الآلة المفكرة التي تعبر عن الرابطة الموجودة بينه وبين السبب الخارجي، وهي تصف تتابع الحالات النفسية التي تنتج عن هذه القوانين بالضرورة: نسبية وذهنية، وصلاحها يرتبط بالإنسان ويعتمد على تماثل الانعكاسات لدى مختلف الأشخاص لنفس المنبهات الخارجية.

ومن هنا يتضح أن بعض التعابير، كالحقيقة العلمية، يجب أن تؤخذ بحدود ضيقة، وليس بالمعنى الحرفي، كما يظن العامة، فليست هناك حقيقة علمية بالمعنى المطلق.

وإذا كان العالِم في القرن التاسع عشر الميلادي لديه الجرأة لأن يقول: إن

(١) النص منقول عن كتاب مقدمات المناهج للأستاذ أنور الجندي ص ٢٣.

الحالة (أ) تتبع الحالة (ب)، والحالة (د) تتبع الحالة (ج)، فإن العالم في القرن العشرين أكثر تحفظاً وأقرب الى التواضع منه إلى الغرور، ولا يجزم بشيء».

ويقول: «إن التغير لا الثبات هو الطابع الذي يتميز به العلم «اليوم» وإن أبحاث العلماء وأقوالهم تؤكد نقص العلم البشري، وإن هذه النظرية الجديدة هي الصحيحة التي تعبر عن الحقيقة والواقع، وتساهم بدفع العلم إلى الأمام، بعكس النظرية القديمة التي تشكل أكبر عقبة في طريق ازدهار العلم وقطف ثماره»[1].

وإلى هذه الحقيقة أشار الله تعالى بقوله: **﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾**[2].

٦ ـ إن المشتغل بالعلوم التجريبية يتأثر بالميراث الثقافي والعلمي السابق، وقد انطلق علماء أوروبا في كتابتهم للعلوم من منطلق مادي إلحادي بناء على ذلك، وفي هذا تفسير لإنكارهم لعالم الغيب وما وراء الحس، تأثراً بأفكارهم المادية التي اعتنقوها لمعارضة الكنيسة ورجال الدين النصراني في أوروبا[3].

٧ ـ إن العلم يظل قاصراً لعدم اعترافه بعديد من الحقائق والمعاني التي أهملها العلماء إهمالاً تاماً (غير المادة).

يقول «وايتهد» في محاولة للتقريب بين الفلسفة والعلم، في كتابه «مقدمة في الفلسفة المادية»: إن هذه الحقائق الأخرى أعطت للعالم صورته المعروفة وخلقت ما فيه من قيم ومُثُل، وإن العلم بعدم اعترافه بهذه الحقائق يقف حجر عثرة في وجه المبادىء الإنسانية والقيم الأخلاقية والمبادىء الدينية[4].

---

(١) مقدمات المناهج ص ٢٤.
(٢) سورة الاسراء، الآية (٨٥).
(٣) انظر بالتفصيل: المستقبل لهذا الدين للأستاذ سيد قطب ص ٢٧ ـ ٥٤، مذاهب فكرية معاصرة للأستاذ محمد قطب ص ٩ وما بعدها.
(٤) نقلاً عن: مقدمات المناهج، للأستاذ أنور الجندي ص ٢١.

بين العلم والايمان بالغيب

- تمهيد
- العلم التجريبي يخضع للإيمان بالغيب
- مبدأ عدم التأكد (نظرية هيزنبرغ)
- آفاق أخرى للغيب في الكون والحياة والإنسان



بين العلم والإيمان بالغيب

تمهيد:

إن التنكر لعالم الغيب وجحوده، من قِبَل الماديين، يبدو في مفهوم العلم المادي الحديث نفسه جهلاً وضلالاً وبُعداً عن العلم والحق؛ لأن العلم المادي لا يستطيع أن يحكم على عالم الغيب، لأنه خارج عن مجاله - كما رأينا في فقرة سابقة - فلا يجوز - علمياً - إنكار شيء لأجل أنه مغيّب عنا وغير مُحَسّ، أو لأنه غير قابل للتفسير. وكم من الأمور والظواهر التي يقف العلم عاجزاً عن تفسيرها، وكم من الأمور التي يتلقاها الناس بعامة والعلماء بخاصة، يتلقونها بالتسليم، وهم لم يروها ولم يحسّوها.

● يقول الدكتور الكسيس كاريل:

«... وإذن فقد سجن الإنسان نفسه بطريقة تحكميّة في حدود حواسه الخمس منذ عصر النهضة (الأوروبية)، أما اليوم: فنحن نعرف الكثير من ظواهر التليباثي (انتقال الأفكار) التي لا تقبل النقض[1]. ولا شك أن طبيعة

---

(١) كنداء عمر بن الخطاب رضي الله عنه في المدينة المنورة لسارية بن زنيم في العراق عندما كان على رأس جيش لفتح بعض البلاد.. فعن ابن عمر أن عمر وجّه جيشاً وراس عليهم رجلاً، يقال له: سارية، قال: فبينما عمر يخطب فجعل ينادي: يا ساري الجبل يا ساري الجبل، ثلاثاً. ثم قدم رسول الجيش، فسأله عمر، فقال: يا أمير المؤمنين! هزمنا، فبينما نحن كذلك =

التليباثي ورؤية الماضي والتنبؤ بالمستقبل لا تزال غير معروفة في أيامنا هذه، كما كانت في عهد أرسطو، ولكنا نعلم: أنه لا يجوز لنا بحال ما أن ننكر ظاهرة لمجرد أنها غير قابلة للتفسير أو عسيرة على الملاحظة». [1]

العلم التجريبي يخضع للإيمان بالغيب

وبمقدار ما وهب الله تعالى الإنسان من القدرة على إدراك قوانين المادة، والتعرُّف على طاقات الكون ومذخوراته بمقدار ما حجب عنه من اسرار هذا الوجود وخفاياه، في نشأته، وفي خط سيره، في طبيعته وحركته، وفي قوانينه وموجوداته. . .

ولذلك كان الذين نجدهم يتشدقون اليوم بالمنهج العلمي التجريبي وبالعلوم التجريبية، لينكروا ما وراء عالم الحس والمادة، كانوا جميعاً متناقضين مع العلم الذي يفرحون به، لأن هذا العلم نفسه، ولأن العلماء التجريبيين أنفسهم جميعاً يقفون عاجزين أمام ظواهر كثيرة وحقائق شتى، لا يستطيعون لها تفسيراً ولا يجدون سبيلاً للإيمان بها مادياً، وإنما يخضعون فيها لقَدَر غيبي، جعله الله تعالى جزءاً من نواميس الكون، يسير هذا الكون بمقتضاه، إنهم ينكرونه بألسنتهم - مكابرة وعناداً وجحوداً- ويستيقنون به في أنفسهم، ويخضعون له في واقعهم! وفيما يلي عرض سريع لبعض الشواهد على ما نقول:

مبدأ عدم التأكد (نظرية هيزنبرغ):

أسهم (فيرنر هيزنبرغ) بمشاركة هامة في تركيب الذرة، فقد أدت أبحاثه

= إذ سمعنا منادياً؛ يا سارية الجبل، ثلاثاً، فأسندنا ظهورنا بالجبل فهزمهم الله.

قال: فقيل لعمر: إنك كنت تصيح بذلك. وهذا اسناد جيد. البداية والنهاية لابن كثير: ١٣١/٧ وذكر للقصة طرقاً أخرى وفيها تفصيل ثم قال: فهذه طرق يشد بعضها بعضاً. وقد ذكرها الشيخ الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة جـ ١٠١/٣ وتكلم على اسانيدها، ورد على من يستنبط منها ان بعض الناس يعلمون الغيب، ونقل بعض الحوادث عما يسمى بالتخاطر والاستشفاف.

(١) تأملات في سلوك الانسان، للدكتور الكسيس كاريل ص ١٦٢.

النظرية على التركيب الذري، إلى مبدأ عدم التأكد، الذي ينص على:

«استحالة تعيين موقع وسرعة الالكترون معاً وبدقة».

وفي الحقيقة: إن هذا المبدأ ينطبق على جميع الأجسام، إلا أنه يصبح ذا شأن محسوس فقط عندما تكون الكتلة صغيرة جداً. وهذا لا ينتج عن عدم دقة الجهاز المستخدم في التجربة بل يرجع الى التقييد الأساسي في الطبيعة.

يمكن فهم مبدأ عدم التأكد من المثال التالي:

افرض أنه طُلب منك قياس سُمْك ورقة بواسطة متر خشبي غير مرقم، طبيعي أن النتيجة ستكون خطأ، ولا معنى لها. ولكي تكون النتيجة معقولة يجب أن تستخدم أداة مدرجة بوحدات تقل عن سُمْك الورقة.

وبالمثل، لكي نقيس الكتروناً ما أو نعيّن موقعه يجب علينا استخدام متر مدرج بوحدات تقلّ عن أبعاد الإلكترون، ولكي نشعر بإلكترون ما، يمكننا استخدام الضوء أو الأشعة الكهرومغناطيسية لتؤثر به، ويجب أن يكون طول موجة الضوء أصغر من أبعاد الإلكترون، لكن مثل هذا الضوء يكون له طاقة عالية جداً، وإن فوتوناته ستغيِّر من طاقة الالكترونات عندما تصطدم بها. وبهذا يمكن حساب موقع التصادم، لكن بعد التصادم ستكون معرفتنا لطاقة وسرعة الالكترون ضئيلة جداً.

إن تعيين موقع الكترون ما بواسطة تفاعله مع الفوتونات يشبه إلى حد ما قياسنا طول غرفة ما بواسطة جرّافة، فأثناء سياقنا للجرافة عبر الغرفة، يمكننا أن نرى أن أبعاد الغرفة هي $\frac{١}{٢}$ ٣ جرافة طولاً، و$\frac{١}{٢}$ ٢ جرافة عرضاً. ولكن بعد الانتهاء من القياس، من يدري ما ستكون عليه حالة الغرفة (أو طاقة الإلكترون)؟ . . .

. . . وفي ضوء مبدأ عدم التأكد، يجب أن نكتفي بنظرية ما تسمح لنا بحساب الموقع المحتمل للالكترونات في الذرات. وبذلك تكون أحسن النماذج الذرية هي معادلات رياضية مجردة، تصف الخواص الذريّة والسلوك ضمن الحد النظري لمبدأ عدم التأكد.

ولتوضيح الصورة الموجيّة ـ الميكانيكية للإلكترون في ذرة ما، دعنا نجري تجربة خيالية (مستحيلة) للحالة الأدنى لذرة الهيدروجين: نأخذ صورة لذرة مفردة آلاف المرات على نفس اللوح الفوتوغرافي لنحصل على عدة مواقع عرض متكررة، تظهر نتيجة الفرضية، حيث تظهر النقط التي تمثل الالكترون على شكل سحابة كروية متماثلة، أو كثافة الكترونية حول النواة، نلاحظ أنه لا يوجد نصف قطر ولا إطار للذرة. وللسهولة، تخيل الكيميائيون أسطحاً وهمية تكون عليها الكثافة الالكترونية ثابتة حول النواة. ومن ثم صار الكيميائيون يتكلمون عن أشكال هذه الأسطح الوهمية. فبالنسبة للالكترون في الحالة ـ الأدنى لذرة الهيدروجين (ground-state)، تكون الاسطح ذات الكثافة الالكترونية الثابتة كروية ومتماثلة حول النواة، حيث نرى سطحاً ذا كثافة ثابتة. واحتمال وجود الالكترون بداخله يبلغ ٩٠ بالمئة. ويبلغ قطر هذه الكرة الخيالية حوالي ٢,٨ Å. وعندما يمتص الالكترون في ذرة الهيدروجين طاقة، يرتفع إلى حالات قد تأخذ فيها سحابة الالكترون شكلاً مختلفاً.[١]

ومن هذا النص الذي نقلناه عن واحد من علماء الكيمياء، ومن مرجع علمي معتمد وموثق عند أصحاب الاختصاص، لاحظنا أن هذا المنهج العلمي نفسه يقوم على الاحتمال وعدم التأكد، فهو يفترض أشياء أو تجارب خيالية (مستحيلة) ـ كما سبق ـ ثم يبني عليها نظريات معينة.

فهل يزعم بعد ذلك أحد من العقلاء أنه لا يؤمن بما جاء به الخبر الصادق وحياً من عند الله سبحانه، بوجود الجنة والنار. والملائكة والجن... الخ، بحجة أن العلم أو المنهج العلمي، الذي يطمح الى التأكد من كل شيء، لم يستطع أن يثبت ذلك..؟ أو هل يستطيع أن يزعم بعد هذا أن الغيب والإيمان به

---

(١) انظر: الكيمياء العامة: تفاعل المادة، الطاقة، الانسان، تأليف فريدريك لونجو ترجمة د. مروان كمال ومجموعة من أساتذة الجامعة الأردنية وجامعة اليرموك، ومراجعة د. اسحق احمد فرحان. ص ٦٦ ـ ٦٨. وهو من منشورات مجمع اللغة العربية الاردني، في نطاق مشروعه لتعريب التعليم العلمي الجامعي. طبعة عام ١٤٠١ هـ.

واقرأ فصلاً بعنوان «الله والقوانين الكيموية» في كتاب: الله يتجلى في عصر العلم ص ٩٦ ـ ١٠٣.

يتنافى مع العلم. . . أو أن العقلية الغيبية ـ التي تؤمن بالغيب ـ ليست عقلية علمية؟

نتائج العلوم تبدأ وتنتهي بالاحتمالات:

إن «الغيب» هو الحقيقة «العلمية» الوحيدة المستيقنة من وراء كل التجارب والبحوث والعلم الإنساني ذاته! وإن «العلمية» في ضوء التجارب والنتائج الأخيرة مرادفة تماماً «للغيبية». . أما الذي يقابل الغيبية حقاً فهو «الجهلية»!!! الجهلية التي تعيش في القرن السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر ـ ربما ـ ولكنها لا تعيش في القرن العشرين!!!

● عالم معاصر ـ من امريكا ـ يقول عن «الحقائق» التي يصل اليها «العلم» بجملتها»:

«إن العلوم حقائق مختبرة، ولكنها مع ذلك تتأثر بخيال الإنسان وأوهامه ومدى بعده عن الدقة في ملاحظاته وأوصافه واستنتاجاته. ونتائج العلوم مقبولة داخل هذه الحدود. فهي بذلك مقصورة على الميادين الكمية في الوصف والتنبؤ. وهي تبدأ بالاحتمالات وتنتهي بالاحتمالات كذلك. . . وليس باليقين. . ونتائج العلوم بذلك تقريبية، وعرضة للأخطاء المحتملة في القياس والمقارنات، ونتائجها اجتهادية، وقابلة للتعديل بالإضافة والحذف، وليست نهائية. وإننا لنرى أن العالِم عندما يصل الى قانون أو نظرية، يقول: إن هذا هو ما وصلنا إليه إلى الآن، ويترك الباب مفتوحاً لما قد يستجدّ من التعديلات»[1].

تعقيب. . .

وهذه الكلمة تلخص حقيقة جميع النتائج التي وصل اليها العلم، والتي يمكن أن يصل إليها كذلك، فطالما أن «الإنسان» بوسائله المحدودة، بل بوجوده المحدود بالقياس إلى الأزل والأبد هو الذي يحاول الوصول إلى هذه النتائج فإنه

---

(١) الله يتجلى في عصر العلم ص ١٨.

من الحتم أن تكون مطبوعة بطابع هذا الإنسان، ولها مثل خصائصه من كونها محدودة المدى وقابلة للخطأ والصواب، والتعديل والتبديل.

على أن الوسيلة التي يصل اليها الإنسان إلى أية نتيجة هي التجربة والقياس، فهو يجرب، ثم يعمم النتيجة التي يصل إليها عن طريق القياس، والقياس ـ باعتراف العلم وأهله ـ وسيلة تؤدي الى نتيجة ظنية، ولا يمكن أبداً أن تكون قطعية ولا نهائية. والوسيلة الأخرى ـ وهي التجربة والاستقصاء، بمعنى تعميم التجربة على كل ما هو من جنس ما وقعت عليه التجارب في جميع الأزمنة وفي جميع الظروف ـ وسيلة غير مهيأة للإنسان، وهي إحدى الوسائل الموصلة الى نتائج قطعية. ولا سبيل الى نتيجة قطعية وحقيقة يقينية إلا عن طريق هدى الله الذي يبينه للناس. ومن ثم يبقى علم الانسان فيما وراء ما قرره الله له، علماً ظنياً لا يصل الى مرتبة اليقين بحال[1].

آفاق أخرى للغيب في الكون والحياة والإنسان:

يقول الدكتور عبد الرزاق نوفل:

● لقد قرر علماء الضوء أخيراً: أنه توجد أشعة غير منظورة مع الأشعة المنظورة. . . وإذا قارنّا بين الأشعة المرئية والأشعة غير المرئية بَدَتْ لنا الأولى مجرد جزء صغير من الصورة الكلية للضوء، ولذلك وجد العلم أن كلمة «ضوء» أو «حزمة ضوئية» أو «إشعاع». . . قد لا تدل على حقيقة الضوء، لذلك فقد ظهر لفظ الطاقة المشعة لتدل على جميع أشكال الإشعاع سواء كانت مرئية أم غير مرئية. . .

. . . وهذه موجات الراديو، والرادار. . . الذي لا يكتشف وجود الأشياء فقط، بل يحدد مكانها بالضبط، كلها موجات غير مرئية، وغيرها كثير، ما زال العلم يكتشف منها في كل حين جديداً[2].

---

(١) في ظلال القرآن: ٧/١١١٦ ـ ١١١٧.

(٢) القرآن والعلم الحديث د. عبد الرزاق نوفل ص ١٥١، انظر: الله والكون د. محمد جمال الدين الفندي ص ١٨٧ وما بعدها.

● وكذلك الحياة: كيف نشأت؟ وما هي الحياة؟ وما سرُّ الحياة؟

إن العلم يقف عاجزاً أمام تفسير نشأة الحياة وكيفية مجيئها إلى هـذه الأرض، رغم كل النظريات التي افترضها العلماء لتفسير نشأة الحياة من عالم الجمادات.[1]

فهذا كله، مع ما سبق من أمثلة، غيب لا يعلمه إلا الله تعالى وحده، الذي خلقه وأوجده، وعلى سُنّة الله فطره: ﴿**ما أشهَدْتُهُم خَلقَ السمواتِ والأرضِ ولا خَلْقَ أنفُسِهم**﴾[2].

● وأقرب شيء الى الإنسان في هذه الحياة هو الإنسان نفسه، فهل يستطيع ـ مهما أوتي من العلم ـ أن يكون له من القدرة ما يمكنه من معرفة الإنسـان وفهمه فهماً دقيقاً كاملاً بكامل كيانه؟

هذا ما يجيب عنه أكابر العلماء، في العلم الحديث، بـالنفي، فيقول الـدكتور الكسيس كاريل:

«وواقـع الأمر أن جهلنـا مـطبق. فـأغلب الأسئلة التي يلقيهـا عـلى أنفسهم أولئك الذين يدرسون الجنس البشري تـظل بلا جـواب، لأن هناك منـاطق غير محدودة في دنيانا الباطنة، ما زالت غير معروفة.

فنحن لا نعرف، حتى الآن، الإجابـة على أسئلة كثـيرة، مثل: كيف تتحـد جزئيات المواد الكيماوية لكي تكوّن المركب والأعضاء المؤقتـة للخلية؟... كيف تنتظم الخلايا في جماعات من تلقاء أنفسها مثل الأنسجة والأعضاء؟... ما هي طبيعة تكويننا النفساني والفسيـولوجي...؟ أسئلة لا عـداد لها تـظل جميعاً بـلا جواب.

ومن الواضح أن جميع ما حققه العلماء من تقدم ـ فيما يتعلق بدراسة الإنسان

---

(١) انظر: في ظلال القرآن للأستاذ سيد قـطب: ١/١١٨ ـ ١١٩، العلم يدعـو للإيمـان، ترجمـة محمود الفلكي ٨٠ ـ ٨٤، ما أصل الانسان؟ د. موريس بوكاي، الترجمة العربية ص ٢٥ وما بعدها.

(٢) سورة الكهف، الآية: (٥١).

غير كاف، وأن معرفتنا بأنفسنا ما زالت بدائية في الغالب»[1].

وحتى عندما يتعرف الإنسان على بعض هذه الجوانب، وهو يتعرف عليها بما أعطاه الله تعالى إياه من قدرة على العلم والتعلم والاكتشاف بأداة هي نفسها هبة من الله تعالى للإنسان، وهي هبة العقل، عندما يتعرف على بعض هذه الجوانب، ستتبدى له جوانب كثيرة مجهولة، لا يستطيع الإجابة عليها، لم تكن لتخطر على باله قبل أن يتعرف على ما عرفه منها!

وهكذا فالغيب يحيط بالإنسان من كل جانب، والعلم نفسه أول من يؤمن بهذا الغيب. وعندئذ تكون العقلية العلمية عقلية غيبية، أي تؤمن بالغيب وتخضع له، وتكون العقلية التي لا تؤمن بالغيب عقلية جاهلية، إن كانت هناك عقلية مع الجاهلية! وإلا فهو الجهل والضلال، الذي أبعده الله تعالى عن عباده المؤمنين المتقين الذين يؤمنون بالغيب:

﴿ذلك الكتاب لا ريب فيه هدىً للمتقين الذين يؤمنون بالغيب. . ﴾[2].

---

(١) الإنسان ذلك المجهول، د. كاريل ص ١٣ ـ ١٨، تأملات في سلوك الأنسان، للمؤلف نفسه، ص ٤٧ وما بعدها. وانظر: الإسلام ومشكلات الحضارة للأستاذ سيد قطب ص ٣٩ ـ ٦٣.

(٢) سورة البقرة، الآيتان: (٢ ـ ٣).

قيمة الايمان بالغيب
ومكانته في الاسلام

- تمهيد.. اهمية الايمان بالغيب..
- انكار الغيب: الحاد، ونقص في العلم، وعائق امام تقدمه
- الايمان بالغيب ارتقاء بالانسان
- اثار الايمان بالغيب
- مكانة الايمان بالغيب في العقيدة الاسلامية



قيمة الإيمان بالغيب ومكانته
في الإسلام

تمهيد:

إن كل ما سبق بحثه يؤكد لنا أهمية الإيمان بالغيب وقيمته في مجال الفكر والمعرفة فضلاً عن مكانته في الدين، إذ إن كثيراً من أمور الدين وعقائده وأحكامه إنما هي إيمان بالغيب، فالله سبحانه وتعالى بالنسبة لنا غيب، والحياة البرزخية، والحياة الآخرة بمقدماتها وبموجوداتها، كلها غيب، من قيام الساعة الى البعث والنشور إلى الحساب والميزان وكتابة أعمال الإنسان، والصراط، والجنة والنار... الخ كل هذا غيب يجب الإيمان به.

وما أن يعود الانسان إلى لحظة من لحظات التأمل الفكري ويقظة الوجدان حتى يجد نفسه يسبح بخياله في عالم الغيب الذي منه خرج، أو في عالم الغيب الذي يحيط بجنباته نفسه وبالكون من حوله، وبالغيب الذي ينتظره واليه يصير، فالغيب يحيط به من كل جانب: في المبدأ وفي المصير، وفيما بين المبدأ والمصير.

إنكار الغيب: إلحاد ونقص في العلم وعائق أمام تقدُّمه

«ولو كانت نزعة الإيمان بالغيب والتطلع إليه من ناحية طرفيه: الماضي والآتي، عنصراً من عناصر الفكرة الدينية وحدها، لكان الإنكار لما وراء الحس إلحاداً فحسب، ولو كانت هي النتيجة الختامية لتقدم العلوم واتساع أفقها، لكان هذا الإنكار نقصاً في العلم وقصراً في النظر، وكفى.

● أما وتلك النزعة بنت الغريزة والجبلّة، فإن الأمر أعظم من ذلك وأخطر: إنه نكسة في فطرة الإنسان ترده إلى مستوى الحيوان الأعجم، ولا نقول إلى مستوى الطفولة الغافلة، فإن كثيراً من الأطفال ذوي الفطر السليمة لا يقنعون بالأمر الواقع المشاهد، ولا يقفون في تعليله عند حلقة من حلقات أسبابه وغاياته القريبة، بل يصعدون دائماً إلى أسبابه الأولى، ويسترسلون في تعرف نتائجه الأخيرة، فهذه صورة مصغرة من تلك النزعة الفكرية الإنسانية التي هي أبداً في حركة وتقدم يأبيان الوقوف والجمود.(١)

● وعلى هذا فإن التنكر للإيمان بالغيب فوق كونه إلحاداً ونقصاً في العلم وقصراً في النظر والفكر، هو عائق أمام التقدم العلمي، وحجر عثرة في سبيل الترقي في العلوم المادية أيضاً، إذ لو جاء كل عالم وتنكر لكل المجهودات البشرية التي سبق إليها أسلافُه من العلماء، وأراد أن يعيد الأمر العلمي جذعاً، وأن يعيد التجارب العلمية السابقة ليكررها ويتثبت منها ومن صحتها دون أن يأخذها ويبني عليها، فإنه عندئذ سوف يجد نفسه مضطراً أن يبدأ من نقطة الصفر، دون أن يستفيد من ذلك التراث العلمي الضخم والتجارب العلمية الكثيرة التي أصبحت تراثاً يتناقله كل العلماء بالتسليم والتصديق. وما أعظم خسارة من يفعل ذلك! وما أكثر ما يضيع عليه من الوقت والجهد! وما أقل غناء تجاربه وعلمه الذي انقطع عما سلف!

ولكن الواقع العملي للعلماء خلاف ذلك، وحتى أولئك الذين يتنكرون لعالم الغيب الذي جاء الخبر الصادق عنه في كتاب الله تعالى، نجدهم في واقعهم يميلون الى الإيمان بالغيب في مجال العلم، فمن ذا الذي رأى بأم عينيه أو بجهاز من الأجهزة أن الذرة فيها نواة وحولها الكترونات تدور حولها بسرعة معينة؟ إنهم يؤمنون بهذا دون أن يروا النواة أو الكهارب، وهذا إيمان بالغيب، فكيف يؤمنون به في مجال، ويحرِّمونه على أنفسهم أو على غيرهم في مجال آخر؟

ولذلك كان الإيمان بالغيب تَرَقِياً بالإنسان ورفعة له يترك أثره الكبير في الفرد والجماعة على حد سواء.

---

(١) الدين، بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، د. محمد عبد الله دراز ص ٩٥.

الإيمان بالغيب ارتقاء بالإنسان، وله آثاره الضخمة:

يقول الاستاذ سيد قطب رحمه الله:

«الإيمان بالغيب هو العتبة التي يجتازها «الفرد»، فيتجاوز مرتبة «الحيوان» الذي لا يدرك إلا ما تدركه حواسه، إلى مرتبة الإنسان الذي يدرك أن الوجود أكبر وأشمل من ذلك الحيز الصغير المحدود الذي تدركه الحواس - أو الأجهزة التي هي امتداد للحواس - وهي نقلة بعيدة الأثر في تصور الإنسان لحقيقة الوجود كله ولحقيقة وجوده الذاتي، ولحقيقة القوى المنطلقة في كيان هذا الوجود، وفي إحساسه بالكون وما وراء الكون من قدرة وتدبير.

كما أنها بعيدة الأثر في حياته على الأرض، فليس من يعيش في الحيز الصغير الذي تدركه حواسه كمن يعيش في الكون الكبير الذي تدركه بديهته وبصيرته، ويتلقى أصداءه وإيحاءاته في أطوائه وأعماقه، ويشعر أن مداه أوسع في الزمان والمكان من كل ما يدركه وعيه في عمره المحدود، وأن وراء الكون ظاهره وخافيه، حقيقة أكبر من الكون، هي التي صدر عنها، واستمد من وجودها وجوده.. حقيقة الذات الإلهية التي لا تدركها الأبصار ولا تحيط بها العقول».

وعندئذ تصان الطاقة الفكرية المحدودة المجال عن التبدد والتمزق والإنشغال بما لم تخلق له، وما لم توهب القدرة على الإحاطة به، وما لا يجدي شيئاً ان تنفق فيه...

لقد كان الإيمان بالغيب هو مفرق الطريق في ارتقاء الانسان عن عالم البهيمة. لكن جماعة الماديين في هذا الزمان، كجماعة الماديين في كل زمان، يريدون أن يعودوا بالإنسان القهقرى.. إلى عالم البهيمة الذي لا وجود فيه لغير المحسوس! ويسمون هذا «تقدمية» وهو النكسة التي وقى اللّه المؤمنين إياها، فجعل صفتهم المميزة، صفة: ﴿الذين يؤمنون بالغيب﴾ والحمد لله على نعمائه، والنكسة للمتنكسين والمرتكسين[1].

---

(١) في ظلال القرآن: ١/٣٩ - ٤٠، ٧/١١٢٠.

ولا يغيبنَّ عن بال المسلم أن ترتيب السور في القرآن الكريم أمر توقيفي عن الوحي، وقد جاءت سورة البقرة أول سورة في القرآن الكريم بعد فاتحة الكتاب، وافتتحت السورة الكريمة بالحديث عن الكتاب وصفة المتقين المؤمنين بالكتاب الذين ينتفعون بهذا الكتاب وكانت هذه الصفة هي صفة «الإيمان بالغيب» ليكون في هذا إشارة إلى أن أول ما ينبغي استحضاره واشتراطه لمن أراد الاهتداء بهذا الكتاب والانتفاع به أن يرتقي من أول الأمر ومن بدء الطريق، الى حدٍّ معين من العقل والنضج الفكري والانساني الذي لن يتوفر إلا مع الإيمان بالغيب - كما رأينا - حيث يرتفع الانسان عن حد البهيمية الى حدّ راقٍ هو حد الإنسانية، وأما من لم يرتق ولم يرتفع بنفسه الى هذا المستوى فإنه لن ينتفع بهداية القرآن ولن يكون أهلاً لذلك: **﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً﴾**[1].

مكانة الإيمان بالغيب في العقيدة الاسلامية:

وفي ظلال قول الله تعالى: **﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الاهو﴾** يتحدث الأستاذ سيد قطب رحمه الله، عن مكانة الإيمان بالغيب في التصور الاسلامي، لأن حقيقة الغيب من «مقومات التصور الاسلامي» الأساسية، لأنها من مقومات العقيدة الاسلامية الأساسية، ومن قواعد «الايمان» الرئيسية، يقول رحمه الله:

● إن الله سبحانه يصف المؤمنين في مواضع كثيرة من القرآن بأنهم الذين يؤمنون بالغيب، فيجعل هذه الصفة قاعدة من قواعد الإيمان الأساسية:

﴿ألم، ذلك الكتاب لا ريب فيه، هدىً للمتقين، الذين يؤمنون بالغيب، ويقيمون الصلاة، ومما رزقناهم ينفقون، والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون. أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾[2].

---

(١) سورة الإسراء، الآية (٩).
(٢) سورة البقرة، الآيات (١ - ٥).

● والإيمـان بالله ـ سبحانه ـ هـو إيمان بـالغيب. فذات الله ـ سبحانه ـ غيب بـالقياس إلى البشر، فـإذا آمنوا بـه فإنمـا يؤمنون بغيب، يجـدون آثار فعله، ولا يدركون ذاته ولا كيفيات أفعاله.

● والإيمان بالآخرة كذلك، هو إيمان بالغيب. فـالساعـة بالقيـاس إلى البشر غيب، ومـا يكون فيهـا من بعث وحسـاب وثـواب وعقـاب كله غيب يؤمن بـه المؤمن، تصديقاً لخبر الله سبحانه.

● والغيب الذي يتحقق الإيمان بالتصديق به يشمل حقـائق أخرى يـذكرهـا القرآن الكريم في وصف واقع المؤمنين وعقيدتهم الشاملة:

﴿آمن الرسول بمـا أنزل إليـه من ربه والمؤمنـون، كل آمن بـالله وملائكتـه وكتبه ورسله، لا نفرّق بين أحدٍ من رسله. وقـالوا: سمعنـا وأطعنا غفـرانك ربنا وإليك المصير﴾[1] .

فنجد في هذا النص أن رسول الله ﷺ والمؤمنين كذلك، كـلٌ آمن بالله ـ وهـو غيب ـ وآمن بما أنزل الله على رسولـه ـ وما انـزل الله على رسـولهفيه جـانب من إطلاعه ﷺ على جانب من الغيب بالقدر الـذي قدره سبحـانه ـ كـما قال في الآيـة الأخرى: **﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبة أحداً إلا من ارتضى من رسول﴾**[2].

● وآمن بالملائكة ـ وهي غيب ـ لا يعرف عنه البشر إلا ما يخبرهم به الله، على قدر طاقتهم وحاجتهم.

● ويبقى من الغيب الـذي لا يقوم الإيمـان إلا بالتصـديق به: قَـدَرُ الله ـ وهو غيب لا يعلمه الإنسان حتى يقع ـ كما جاء في حديث الإيمـان «. . . والقدر خـيره وشره. . »[3].

● عـلى أن الغيب في هذا الـوجود يحيط بـالإنسان من كـل جـانب. . غيب في

---

(١) سورة البقرة، الآية (٢٨٥).
(٢) سورة الجن، الآيتان (٢٦ ـ ٢٧).
(٣) جزء من حديث جبريل عن الإيمان والاسلام والاحسان، أخرجه الشيخان.

الماضي وغيب في الحاضر، وغيب في المستقبل.. غيب في نفسه وفي كيانه، وغيب في الكون كله من حوله، غيب في نشأة هذا الكون وخط سيره، وغيب في طبيعته وحركته، غيب في نشأة الحياة وخط سيرها، وغيب في طبيعتها وحركتها.. غيب فيما يجهله الإنسان، وغيب فيما يعرفه كذلك!

● ويسبح الإنسان في بحر من المجهول.. حتى ليجهل اللحظة ما يجري في كيانه هو ذاته فضلاً عما يجري حوله في الكون كله؛ وفضلاً عما يجري بعد اللحظة الحاضرة له وللكون كله من حوله: ولكل ذرة وكل كهرب من ذرة؛ وكل خلية وكل جزئي من خلية!

إنه الغيب.. إنه المجهول.. والعقل البشري - تلك الذبالة القريبة المدى - إنما يسبح في بحر المجهول. فلا يقف إلا على جزر طافية هنا وهنالك يتخذ منها معالم في الخضم، ولولا عون الله له، وتسخير هذا الكون وتعليمه هو بعض نواميسه، ما استطاع شيئاً.. ولكنه لا يشكر.. ﴿**وقليل من عبادي الشكور**﴾[1].. بل إنه في هذه الأيام ليتبجح بما كشف الله له من السنن، وبما آتاه من العلم القليل.. يتبجح فيزعم أحياناً أن «الانسان يقوم وحده»[2]، ولم يعد في حاجة إلى إله يعينه! ويتبجح أحياناً فيزعم أن «العلم» يقابل «الغيب» وأن «العلمية» في التفكير والتنظيم تقابل «الغيبية» وأنه لا لقاء بين العلم والغيب، كما أنه لا لقاء بين العقلية العلمية والعقلية الغيبية![3].

---

(١) سورة سبأ، الآية (١٣).

(٢) عنوان كتاب للملحد جوليان هاكسلي Man Stands Alone، وقد ردَّ عليه كريسي موريسون في كتاب آخر مترجم الى العربية بعنوان: العلم يدعو للإيمان.

(٣) في ظلال القرآن: ٧/١١١٤ - ١١١٥.

أنواع الغيب

- الغيب الاضافي - النسبي -
- مراتب الغيب الاضافي
- الغيب الحقيقي - المطلق -
- مراتب الغيب الحقيقي



أنواع الغيب

الغيب نوعان، يندرجان في مرتبتين رئيسيتين، وكل منهما يندرج تحتها مراتب فرعية، من حيث إمكانية الإطلاع عليها ومعرفتها وعدم إمكانية ذلك. وفيما يلي إيجاز لهذين النوعين الرئيسيين، وما يتفرع عنهما:

النوع الأول: الغيب الإضافي أو النسبي:

وهو ما غاب علمه عن بعض المخلوقين دون بعض، أو غاب عنهم في حال دون حال، بحيث يمكن التعريف به في الدنيا، إما مطلقاً، أو بشروط واستعدادات لذلك.

وهذا الغيب على مراتب:

أ ـ المرتبة الأولىٰ:

أن يغيب الشيء عن حواسك، ولكن يتناوله غيرك بالمشاهدة، كالعلم بالأقطار النائية، والطبقات الأرضية، والأجهزة الداخلية للإنسان والحيوان.

فهذا غيب بالنسبة لبعض الخلق دون بعض، وقد يعلمه الغائب عنه بسماع أخباره المتواترة عمّن شاهده وعَلِمَه، فيمكن معرفة هذا النوع مطلقاً، وعندئذ لا

يكون غيباً، أي بعد هذه المعرفة[1].

ب ـ المرتبة الثانية:

أن يغيب الشيء عن الحواس، ولا يمكن التعريف به في الدنيا بحالٍ من الأحوال، إذ تختلف طبيعته عما عرفناه نحن في حياتنا الدنيا، كالحياة البرزخية وما فيها.

فهذا غيب عنا، ولا نستطيع أن نتعرف عليه حالياً، بل نعقل وجوده بالخبر الصادق، ولم نمر بتجربة أو حالٍ تعرفنا على هذا النوع من عالم الغيب، فهذا يعرفه من يعيش في العالم البرزخي، وكذلك كل ما يعلمه الملائكة ـ عليهم الصلاة والسلام ـ من أمر عالمهم، لا يعلمه البشر مثلاً.

حـ ـ المرتبة الثالثة:

أن يغيب الشيء عن حواسنا، ولا يمكننا التعرف عليه في الدنيا إلا على وجه مجمل، فقد أخبر الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم: أن في الجنة لحماً ولبناً وعسلاً وخمراً، ونحو ذلك. وهذا يشبه ما في الدنيا لفظاً ومعنىً، ولكنه ليس مثله ولا هو حقيقته. والإخبار عن الغائب لا يُفهم إن لم يُعَبّر عنه بالأسماء المعلومة معانيها في الشاهد، ويعلم بها ما في الغائب بواسطة العلم بما في الشاهد، مع العلم بالفارق المميز بينهما، وأن ما أخبر الله به من الغيب أعظم مما يعلم في عالمنا المشاهد، وفي الغائب ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»[2].

وفي الحديث الصحيح، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله، ﷺ، قال: «يقول الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا

---

(1) انظر: درء تعارض العقل والنقل لشيخ الإسلام ابن تيمية: ٥/٧٣، تفسير المنار، للشيخ رشيد رضا: ٧/٤٢٢، المختار من كنوز السنة النبوية، د. محمد عبدالله دراز ص ٢٩٨.
(2) الرسالة التدمرية لابن تيمية ص ٦١ ـ ٦٢، وهي في مجموع الفتاوى أيضاً: ٣/١ ـ ١٢٨.

أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فاقرؤوا إن شئتم: «فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون»[1].

فما لا يخطر بالقلوب، إذا عرِّفت به لم تعرفه إلا إذا كان له نظير، وإلا لم يمكن التعريف به على وجهه[2].

د ـ المرتبة الرابعة:

أن يغيب الشيء عن حس الناس جميعاً، ولكنه يكون في متناول عقولهم، يعرفونه بشروط واستعداد لذلك. فإن لبعض الغيوب أسباباً قد يستدل بها عليها.

وهذه الشروط والأسباب: إما التجربة والمقايسة، كعلم ما سيقع في العام أو الأعوام المقبلة من الكسوف والخسوف، والشروق والغروب، ومنازل الشمس والقمر، ونحو ذلك؛ استنباطاً من التجارب الكونية، التي أجرى الله تعالى بها سُنَّته في سير الكواكب، وقال في شأنها: ﴿**والشمس والقمر حسباناً**﴾[3]. ﴿**ولتعلموا عدد السنين والحساب**﴾[4].

ـ وإما الاستدلالات العقلية، كما نعلم حياة الجنين بحركته، وكما نستدل على عقل الرجل بمنطقه، أو بالخَلْق على خالقه.

فهذا من الغيب الذي يتناوله العلم، بل يتناوله الإيمان الذي هو أخص من العلم، فإنه علم يطمئن إليه القلب ويرتاح له الوجدان[5].

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق، فتح الباري: ٦/٣١٨، وفي التفسير: ٨/٥١٥، ومسلم في الجنة: ٤/٢١٧٤، والترمذي في التفسير: ٥/٧٤ ـ ٧٥، ابن ماجه في الزهد: ٢/١٤٤٧، والدارمي في الرقاق: ٢/٣٣٥، والإمام أحمد في المسند: ٢/٣١٣ وفي مواضع أخرى.

(٢) درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية: ٥/٧٣.

(٣) سورة الأنعام، الآية (٩٦).

(٤) سورة الإسراء، الآية (١٢).

(٥) انظر: المختار من كنوز السنة، د. محمد عبدالله دراز ص ٢٩٨، فتح الباري لابن حجر: ١٣/٣٦٥، درء تعارض العقل والنقل: ٥/٧٣.

ونقصد بمعرفة هذا النوع المعرفة الظنّية لا العلمَ القطعيَّ. وسيأتي مزيد بيان لهذه النقطة إن شاء الله تعالى.

النوع الثاني: الغيب الحقيقي:

وهو ما يغيب عن الحواس والعقول معاً، ولا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى، فهو محجوب عن الخلق جميعاً، لا يمكن لمخلوق أن يعلمه.

وهذا هو الغيب الذي تتناوله الآية الكريمة: **﴿قل: لا يعلم مَنْ في السمواتِ والأرضِ الغيبَ إلا الله﴾**(١).

وقال الله تعالى: **﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو، ويعلم ما في البر والبحر، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها، ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾**(٢).

ثم، إن الغيب من هذا النوع على مرتبتين أو قسمين:

أ ـ المرتبة الاولى:

ما ورد فيه نص صريح بأن الله تعالى قد كتمه عن الخلق جميعاً، حتى الأنبياء والملائكة، كعلم قيام الساعة (يوم القيامة) وسائر الأمور الخمسة التي هي مفاتح الغيب.

● فهذا النوع لا سبيل الى علمه بالوحي ولا بغير الوحي، فقد قال الله سبحانه وتعالى: **﴿إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام، وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت، إن الله عليم خبير﴾**(٣).

---

(١) سورة النمل، الآية (٦٥).

(٢) سورة الأنعام، الآية (٥٩).

(٣) سورة لقمان، الآية (٣٤). وليس في الآية الكريمة أداة حصر، كما هو في الحديث الآتي، ووجه الحصر في هذه الأمور الخمسة: أن الفعل إذا كان عظيم الخطر، وما ينبني عليه الفعل رفيع الشأن، فُهِم منه الحصر على سبيل الكناية، ولا سيما إذا لوحظ ما ذُكر في أسباب النزول من أن العرب كانوا يدّعون علم نزول الغيث، فيشعر بأن المراد من الآية نفي علمهم بذلك واختصاصه بالله سبحانه وتعالى وحده. انظر: فتح الباري: ١/١٢٤، عمدة القاري: ٢/١١٢.

وهذه الآية الكريمة من سورة لقمان تفسير لآية سورة الأنعام السابقة: **﴿وعنده مفاتح الغيب..﴾**.

وقد جاء في الحديث الصحيح عن ابن عمر - رضي الله عنهما - عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله: لا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم ما في غد إلا الله، ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله»[1].

وعنه أيضاً، رضي الله عنهما، قال: قال النبي ﷺ: «مفاتح الغيب خمس، ثم قرأ: «إن الله عنده علم الساعة، وينزل الغيث، ويعلم ما في الأرحام، وما تدري نفس ماذا تكسب غداً، وما تدري نفس بأي أرض تموت، إن الله عليم خبير»[2].

وعن بريدة، رضي الله عنه، مرفوعاً: «خمس لا يعلمهن إلا الله: إن الله عنده علم الساعة، وينزل الغيث، ويعلم ما في الأرحام، وما تدري نفس ماذا تكسب غداً، وما تدري نفس بأي أرض تموت، إن الله عليم خبير»[3].

ومفاتح الغيب هذه، والتي جاءت في سورة لقمان، وفي الأحاديث السالفة لا مطمع لأحد في علم شيء منها، فمن ادّعى علم شيء منها غير مُسْنِدِه إلى رسول الله، ﷺ، كان كاذباً في دعواه[4].

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد: ١٣/٣٦١، وابن حبان، في موارد الظمآن ص ٤٣٤، والإمام أحمد في المسند: ٢/٢٤، ٥٢، ٥٤، والبغوي في التفسير: ٢/١١٦.
وأخرجه الإمام مسلم في الإيمان: ١/٣٩ و ٤٠ من حديث جبريل المعروف دون لفظ «مفاتح الغيب»، والنسائي في الإيمان: ٨/١٠٣.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير: ٨/٢٩١، ٣١٣ - ٥١٤، والإمام أحمد في المسند: ٢/١٢٢، والطبري في تفسيره: ٢١/٨٨، والبغوي أيضاً: ٥/١٨٣، وابن كثير في التفسير: ٢/١٣٨.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ٥/٣٥٣، والبزار، وصححه ابن حبان والحاكم، ورجال أحمد رجال الصحيح. انظر: مجمع الزوائد للهيثمي: ٧/٨٩ - ٩٠.

(٤) انظر: فتح الباري لابن حجر: ١/١٢٤.

وعلى هذه المرتبة من الغيب يحمل نفي العلم الذي جاء في سورة النمل، في قوله سبحانه وتعالى: ﴿**قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله**﴾، فهو محجوب حتى عن أنبياء الله تعالى ورسله وملائكته المقرّبين[1].

ب ـ المرتبة الثانية:

ما لم يرد فيه نص صريح في أن الله تعالى قد كتمه عن الخلق جميعاً، فلله سبحانه وتعالى أن يطلع من يشاء من رسله على ما شاء منه، ولا يُطْلِعُ على هذا النوع أحداً غير الرسل، عليهم الصلاة والسلام.

وقد أخرج الإمام احمد عن ابن عمر مرفوعاً، وعن ابن مسعود ـ موقوفاً ـ رضي الله عنهم ـ قال: «أوتي نبيكم علم كل شيء سوى هذه الخمس»[2].

وأخرج الطيالسي في مسنده عن ابراهيم بن سعد عن الزهري: «أوتي نبيكم مفاتح الغيب إلا الخمس»[3].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما: «أوتيت مفاتيح كل شيء إلا الخمس: «إن الله عنده علم الساعة..» الآية[4].

● وهذا النوع من الغيب، هو الذي يشير إليه قول الله تبارك وتعالى: ﴿**عالم الغيب فلا يُظْهِر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول**﴾[5] وقوله

---

(١) وسيأتي فيما بعد أن هذا العموم قد يدخله التخصيص في بعض الحالات والمراحل.

(٢) رواه أحمد وأبو يعلى، ورجالها رجال الصحيح. مجمع الزوائد: ٢٦٣/٨، وانظر فتح الباري: ١٢٤/١ و٢٩١/٨ وقد عزاه فيه للطبري، وهو في التفسير بلفظ: كل شيء أوتيه نبيكم ﷺ إلا علم الغيب، الخمس، إن الله عنده علم الساعة... تفسير الطبري: ٨٩/٢١، عمدة القاري: ١١٣/٢.

(٣) فتح الباري: ٥١٤/٨، تفسير ابن كثير: ٤٥٥/٣ وقال: هذا إسناد حسن على شرط أصحاب السنن ولم يخرجوه.

(٤) أخرجه أحمد في المسند: ٨٥/٢، وانظر: مجمع الزوائد: ٢٦٣/٨، ابن كثير: ٤٥٥/٣، فيض القدير للمناوي: ٦٩/٣.

(٥) سورة الجن، الآيتان (٢٦ و٢٧).

والمراد بالإطلاع على الغيب ـ في الآية الكريمة ـ: علم ما سيقع قبل أن يقع على تفصيله، فلا يدخل في هذا ما يكشف لهم من الأمور المغيبة عنهم. انظر: فتح الباري: ٣٦٤/١٣.

سبحانه وتعالى: ﴿**وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء**﴾[1].

فالمُدَّعى في هذا النوع شيئان:

١ ـ أنه لا سبيل إلى علمه من غير إخبار الله تعالى.

٢ ـ أنه لا يصل الى علمه عن الله تعالى أحد غير الأنبياء.

● وعلى هذا الفهم لهذا النوع من الغيب ـ بحصر معرفته بإعلام الله تعالى لمن ارتضى من أنبيائه ورسله ـ ينزل قوله سبحانه وتعالى عن يوسف عليه الصلاة والسلام: ﴿**لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما**﴾[2]، وقوله تعالى عن عيسى عليه السلام، فيما أعطاه الله من معجزات: ﴿... **وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم**﴾[3].

وكذلك إخباره صلى الله عليه وسلم عن أشياء كثيرة، مما أطلعه الله تعالى عليه ـ من فتوحات إسلامية وقعت كما أخبر بها نبينا محمد عليه الصلاة والسلام، واستشهاد بعض الصحابة، والشهادة لبعضهم وبشارتهم بالجنة، وما يكون من علامات بين يدي الساعة في أمور كثيرة جداً واردة في الصحاح وغيرها[4].

---

(١) سورة آل عمران، الآية (١٧٩).

(٢) سورة يوسف، الآية (٣٧).

(٣) سورة آل عمران، الآية (٤٩).

(٤) انظر: المختار من كنوز السنة للدكتور دراز ص ٢٩٨ ـ ٣٠٠، تفسير المنار: ٤٢٢/٧ ـ ٤٢٦، ٤٥٧ وما بعدها، الوحي المحمدي لرشيد رضا ص ٢٠٨، وأحكام القرآن للإمام ابن العربي: ٧٣٨/٢. وفي كتب دلائل النبوة للبيهقي وأبي نعيم وغيرهما، أبواب وفصول في إخباره عليه الصلاة والسلام عن أمور مغيبة كثيرة بوحي من الله تعالى وإعلام.



مفاتح الغيب

- مفاتح الغيب في القرآن والسنة
- المفتاح الأول: علم الساعة
- المفتاح الثاني: انزال الغيث
- المفتاح الثالث: علم ما في الأرحام
- المفتاح الرابع: كسب ما في غد
- المفتاح الخامس: مكان الموت
- علم الله الشامل...
- حكمة حصر الغيب بالمفاتح الخمس

مفاتح الغيب

في القرآن والسنة:

نعود مرة أخرى إلى مفاتح الغيب، التي سبقت الإشارة إليها، وجاء النص صريحاً أنه لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى، ويقف الإنسان ـ مهما أوتي من العلم ـ عاجزاً عن إدراك شيء منها، بل إن أحداً من الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين، عليهم الصلاة والسلام، لا يعرف عنها شيئاً[1].

فقد روى الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ عن رجل من بني عامر أنه قال للنبي ﷺ: «... فهل بقي من العلم شيء لا تعلمه؟

قال: قد علمني اللّه عز وجل خيراً، وإن من العلم ما لا يعلمه إلا الله عز وجل: الخمس، «إن الله عنده علم الساعة..» الآية[2].

---

(١) ولا يفهم من هذا أن الغيب محصور في تلك الخمس التي ذكرها الله تعالى في سورة لقمان وفسّر بها النبي عليه الصلاة والسلام مفاتح الغيب.

فقد صرح الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم بغيرهنّ، في مواطن كثيرة، من ذلك: حقيقة الروح، وتفصيل بدء الخلق، وتفاصيل النشأة الآخرة... إلى غير ذلك.

وإنما اقتصرت الآية الكريمة على تلك الخمس؛ لأن النفوس كلها تتشوق لمعرفتها، ولأنها وردت مجموعة في سؤال الناس للنبي ﷺ، كما سيأتي في السياق.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند، وسعيد بن منصور، والبخاري في الأدب المفرد، والطبري في التفسير: ٨٨/٢١. وقال ابن كثير في تفسيره: ٤٥٦/٣: «هذا إسناد صحيح».

وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد: جاء رجل من أهل البادية إلى النبي - ﷺ - فقال: إن امرأتي حبلى، فأخبرني متى تلد؟ وبلادنا مجدبة، فأخبرني متى ينزل الغيث؟ وقد علمتُ متى ولدتُ، فأخبرني متى أموت؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿**إن الله عنده علم الساعة. . .**﴾ الآية[1].

وفيما يلي نلمع إلماعة موجزة إلى كل من هذه المفاتيح، وبالله التوفيق:

أ - المفتاح الأول: علم الساعة:

● كانت قضية البعث وقيام الساعة وما فيها أمراً من أشد الأمور غرابة على حس المشركين، الذين واجههم النبي ﷺ، بعد أن ابتعدوا عن دين ابراهيم الخليل عليه السلام، دين التوحيد، وكانوا يستبعدون وقوعها ويعجبون لذلك أشدّ العجب، ويستنكرون ذلك أشد الاستنكار، وقد حكى الله تعالى عنهم ذلك فقال سبحانه وتعالى:

﴿**وقال الذين كفروا: هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد؟! افترى على الله كذباً أم به جِنَّة؟. بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد**﴾[2].

● ولقد أنفق الرسول ﷺ جهداً كبيراً في تقرير حقيقة البعث والقيامة في نفوس الناس، إذ لا تستقيم حياة أمة من الأمم ما لم يستقم أمر الآخرة؛ عقيدة راسخة في ضميرها، وفي هذا يقول الاستاذ سيد قطب رحمه الله:

«إن العقيدة في الآخرة فسحة في التصور، وسعة في النفس، وامتداد في الحياة ضروري في تكوين النفس البشرية ذاتها، لتصلح أن تناط بها وظيفة القيادة للبشرية والشهادة عليها.

---

(١) تفسير الطبري: ٨٨/٢١. ابن كثير: ٤٥٦/٣ وأخرجه ابن المنذر عن عكرمة، وذكر نحوه البغوي في التفسير: ١٨٢/٥ - ١٨٣، وذكره الواحدي. انظر: روح المعاني للآلوسي: ١٠٩/٢١، أسباب النزول للسيوطي، بهامش الجلالين ص ٥٤٧.

(٢) سورة سبأ، الآيتان (٧ و ٨).

كذلك هي ضرورية لضبط النفس عن شهواتها الصغيرة ومطامعها المحدودة، ولفسحة مجال الحركة حتى لا تيئسها النتائج القريبة ولا تقعدها التضحيات الأليمة عن المضيّ في التبشير بالخير، وفعل الخير، والقيادة إلى الخير، على الرغم من النتائج القريبة والتضحيات الأليمة... وهي صفات ومشاعر ضرورية كذلك للنهوض بتلك الوظيفة الكبيرة.

والاعتقاد في الآخرة مفرق الطريق بين فسحة الرؤية والتصور في نفس «الإنسان» وضيق الرؤية واحتباسها في حدود الحس في إدراك «الحيوان»! وما يصلح إدراك الحيوان لقيادة البشرية والقيام بأمانة الله في الخلافة الراشدة»[1].

● والساعة غيب اختص الله تعالى به واستأثر بعلمه، فلم يطلع عليه أحداً من خلقه جميعاً، بما فيهم الأنبياء المرسلون والملائكة المقربون، رغم ما كان من إكثار المشركين من السؤال عنها، استبعاداً لوقوعها، وتعنتاً منهم وجحوداً، فقال سبحانه وتعالى:

﴿يسألك الناس عن الساعة؟ قل: إنما علمها عند الله، وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً﴾[2].

﴿إليه يُردّ علم الساعة﴾[3].

﴿إن الساعة آتية أكاد اخفيها لتجزىٰ كل نفس بما تسعىٰ﴾[4].

﴿يسألونك عن الساعة أيان مرساها؟ فيم أنت من ذكراها إلى ربك منتهاها، إنما أنت منذر من يخشاها﴾[5].

وعندما سأل جبريل عليه السلام النبيّ، ﷺ: متى الساعة؟ قال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل، وسأخبرك عن أشراطها: إذا ولدت الأمة

---

(١) في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب: ١٠٦٨/٧ - ١٠٧٣، ١٤٠٨/٩، وانظر: مشاهد القيامة في القرآن.

(٢) سورة الأحزاب، الآية (٦٣).

(٣) سورة فصلت، الآية (٤٧).

(٤) سورة طه، الآية (١٥).

(٥) سورة النازعات، الآية (٤٢ - ٤٥).

ربَّتهـا، وإذا تطاول رعاة الإبل البُهم في البنيان، في خمس لا يعلمهن إلا اللّه. ثم تلا النبي ﷺ: «إن الله عنده علم الساعة» الآية..[1].

● وإذا استأثر الله سبحانه وتعالى بعلم الساعة، فلا فـائدة تتحقق من وراء البحث عن زمن وقـوعها، لأن هـذا خـارج عن طـوق العلم البشري، فحـري بـالعاقـل إذن أن يكون عـلى استعداد لهـا وتهيؤ، فما كـان إخفـاؤهـا إلا لحكمـة كبرى؛ فلا يتشاغل الناس عنها إذا كانت بعيدة عنهم، ولا ينصرفون عن العمل للحياة الدنيا إذا كانت قريبة لهم.

ولذلك كان الرسـول ﷺ يقول لمن يسـأله عن السـاعة: «ويحـك إن الساعـة آتية، فما أعددت لها»؟[2]

● ولئن حجب الله تعالى علم الساعة عن الخلق، إن حكمته ـ جل شأنـه ـ اقتضت أن يكون بين يدي الساعة أمارات وأشراط، تأتي مقدمة لها بين يديهـا: إيقـاظاً للغـافلين، وحثاً لهم عـلى التوبـة والاستعداد. فقـد قـال اللّه سبحـانـه وتعالى:

﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم، يوم ترونها تذهـل كل مرضعة عمّا أرضعت، وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى، وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد﴾[3].

وقال سبحانه:

﴿فهل ينظرون إلا الساعة أن تـأتيهم بغتة فقـد جاء أشراطهـا، فأنّى لهم إذا

---

(١) قطعة من حديث طويل أخرجه البخاري في الإيمان ١/ ١١٤ وفي تفسير سورة لقمان، وأخـرجه مسلم في الإيمان: ١/ ٤٠، وأبو داود في السنة: ٧/ ٦٣ ـ ٦٦، والنسائي في الايمان: ٨/ ١٠١ ـ ١٠٣ وابن ماجه في المقدمة: ١/ ٢٥.

(٢) أخـرجه البخـاري في فضـائـل الصحـابـة: ٧/ ٤٢، ومسلم في الـبر والصلة: ٤/ ٤٥ ـ ٤٦، والـترمذي في الـزهد: ٤/ ٢٢ ـ ٢٣، وأحمـد في المسند: ٣/ ١٠٤. وانـظر تفسـير ابن كثـير: ٢/ ٢٧٣.

(٣) سورة الحج، الآيتان (١ ـ ٢).

جاءتهم ذكراهم﴾[1]، **﴿يسألونك عن الساعة أيّان مرساها؟ فيمَ؟ أنت من ذكراها﴾**[2].

فبعثة الرسول محمد ﷺ من علامات الساعة وأشراطها، لأنه خاتم الرسل الذي أكمل الله تعالى به الدين وأقام به الحجة على العالمين، وقد أخبر عن علامات الساعة وأشراطها، وأبان عن ذلك وأوضحه، بما لم يؤته نبي قبله، ولهذا جاء في أسمائه ﷺ أنه: «نبي التوبة ونبي الملحمة، والحاشر الذي يحشر الناس على قدميه، والعاقب الذي ليس بعده نبي»[3].

● وهذه العلامات إما أن تكون علامات وأمارات على قرب قيام الساعة ووقوعها وإما على حصولها:

فمن النوع الأول: الدجال، ونزول عيسى عليه السلام، ويأجوج ومأجوج، والخسف. . .

ومن الثاني: الدخان، وطلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة، والنار التي تحشر الناس[4].

وهذه العلامات والعلم بها لا ينافي ما سبق من اختصاص الله سبحانه وتعالى بعلم الساعة، لأن علم قربها لا يستلزم علم وقت مجيئها معيناً.

وكذلك فإن معرفة هذه العلامات لا تعطي الإنسان علماً بوقت وقوعها متى يكون؟ فهي تأتي بغتة تفاجيء الناس وتبغتهم، وهم عنها غافلون:

﴿قد خسر الذين كذّبوا بلقاء الله حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا: يا حسرتنا على ما فرّطنا فيها، وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم، ألا ساء ما يزرون﴾[5].

---

(١) سورة محمد، الآية (١٨).

(٢) سورة النازعات، الآية (٧٩).

(٣) جاءت جملة أحاديث في أسمائه ﷺ في البخاري كتاب المناقب، ومسلم في الفضائل، والترمذي والدارمي والموطأ ومسند أحمد وطبقات ابن سعد.

(٤) فتح الباري: ٣٥٢/١١ ـ ٣٥٣، وانظر جملة من هذه العلامات في كتب الحديث في أبواب الفتن وأشراط الساعة والملاحم، ومنها جملة في جامع الأصول: ٣٢٧/١٠ ـ ٤٢٠، تفسير ابن كثير: ١٩٤/٢ ـ ١٩٧، والإذاعة لما كان وما يكون بين يدي الساعة لمحمد صديق خان. .

(٥) سورة الأنعام، الآية (٣١).

﴿أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون﴾[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «. . . ولتقومنّ الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما، فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقومنّ الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لِقحَتِه فلا يَطْعمه، ولتقومنّ الساعة وهو يَليْطُ حوضه فلا يسقي فيه، ولتقومنّ الساعة وقد رفع أحدكم أكلتَهُ الى فيه فلا يَطْعَمُها»[2].

وروى سهل وأنس وأبو هريرة، رضي الله عنهم، أن رسول الله ﷺ قال: «بعثت أنا والساعة كهاتين» يشير بأصبعيه[3].

وعن المستورد بن شداد، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «بعثت في نَفَس الساعة فسبقتُها، كما سبقت هذه لهذه، لأصبعيه السبابة والوسطى»[4]

وعن خالد بن عمير العدوي قال: خطبنا عتبة بن غزوان، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد:

فإنّ الدنيا قد آذنت بصُرْم وولّت حذّاء، ولم يبق منها إلا صُبَابة كصبابة

---

(١) سورة يوسف الآية (١٠٧).

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق: ٣٥٢/١١، ومسلم في الفتن: ٢٢٧٠/٤، وأحمد في المسند: ١٦٦/٢ و٣٦٩، ٤٣١/٣، وابن حبان برقم (٢٥٧١ و٢٥٧٢) من موارد الظمآن.
واللِقحةُ هي: الناقة الحلوب، ويليط حوضه: أي يصلحه ويطينه، وألاط حوضه: جمع حجارة فصيّرها كالحوض، ثم سدَّ ما بينها من الفُرَج لينحبس الماء.

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق: ٣٤٧/١١، ومسلم في الفتن: ٢٢٦٨/٤، والترمذي في القدر: ٣٣٦/٣، وابن ماجة في المقدمة: ١٧/١، وفي الفتن: ١٣٤١/٢، وأحمد في المسند: ٥٠/٢ و٩٢، والدارمي: ٣١٣/٢، ومالك في الموطأ برقم (١٩٨٠) وانظر: فتح الباري لابن حجر: ٣٤٧/١١ وما بعدها.

(٤) أخرجه الترمذي في القدر: ٣٣٦/٣، وقال: هذا حديث غريب، ورواه الدولابي وابن منده والحاكم بلفظ: «بعثت في نَسَم الساعة» وإسناده جيد ورواته ثقات انظر: الأحاديث الصحيحة للشيخ ناصر الدين الألباني: ٤٦٧/٢ ـ ٤٦٨، فتح الباري لابن حجر: ٤٣٨/١١، جامع الأصول لابن الأثير: ٣٨٥/١٠.

الإناء يتصابّها صاحبها، وإنكم منتقلون منها الى دار لا زوال لها، فانتقلوا بخير ما بحضرتكم. . . »[1].

ب ـ المفتاح الثاني: إنزال الغيث

والمفتاح الثاني من مفاتح الغيب بعد علم الساعة هو إنزال الغيث، وهو آية الله تعالى في خلقه على إمكانية قيام الساعة، حيث يحيي به الأرض بعد موتها.

● والله سبحانه وتعالى ـ وحده ـ الذي ينزّل الغيث ويختص بالقدرة على إنزاله ويختص بعلمه علماً كاملاً شاملاً. فهو ينزله في إبّانه من غير تقديم ولا تأخير، في بلد لا يتجاوزه به، وبالقدر الذي يريده سبحانه وتقتضيه حكمته. فهو اختصاص قدرة واختصاص علم:

﴿أفرأيتم الماء الذي تشربون؟ أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون﴾[2].

﴿هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون﴾[3].

وقد تجري بعض المحاولات البشرية، فيما أسموه «المطر الصناعي» والمقصود منه حتى الآن هو: عصر السحب الممطرة أو القابلة للإمطار، وذلك بتوليد حالات من فوق التشبّع داخلها بطرق صناعية، كقذف بلورات من الثلج الجاف مباشرة، بواسطة الطائرات، أعلى السحب الركامية، لا تلبث أن تسقط إلى المناطق الوسطى من تلك السحب لتبدأ قصة سقوط المطر الصناعي.

أو: بقذف مسحوق بدلاً من بلورات الثلج أو حرقه بحيث يكوّن سحباً كثيفة، أو برش نقاط من الماء أسفل السحب وأعلاها. . . ولكل من هذه الطرق ظروفها الخاصة[4].

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد: ٢٢٧٨/٤، وأحمد في المسند: ١٧٤/٤، ٦١/٥.

(٢) سورة الواقعة، الآيتان: (٦٨، ٦٩).

(٣) سورة النحل، الآية: (١٠).

(٤) انظر: الله والكون، للدكتور محمد جمال الدين الفندي ص ١٧٩ وما بعدها.

● وهـذا لا يعني أن البشر يستطيعـون إنزال الغيث أو أن ذلـك بمقدورهم، فالله سبحانـه وتعالى ـ وحـده هو الـذي خلق الأسباب الكـونية لإنـزال المطر، وجعل تلك الخصائص للسحب وتركيبها بعامة، والسحب الـركاميـة بخاصـة، التي خصّهـا الله تعالى بنـزول البَرَد ونشـوء الرعـد والبرق. . . وكـذلـك تـوفـير الظروف المناخية لنزول الغيث، والهواء الصاعد المحمّل ببخار الماء. . . كل هذا خلقه الله تعالى، وليس بإمكان البشر ذلك.

فكان إنزال الغيث مختصاً بالله سبحـانه وتعـالى وحده، وليس هنـالك عـاقل يزعم أن ذلك بمقـدوره. وحتى الكفار قـديماً حكى الله تعـالى إقرارهم بـذلك، فقال:

﴿ولئن سألتهم من نزّل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها؟ ليقـولُنّ: الله﴾[1].

● ولئن حـاول بعض الناس التعـرف بالتجـارب والمقاييس والعـادات قُرْب نـزول المطر، ظنـاً لا علماً يقينياً، إنهم لا يقـدرون على علم ذلـك يقينـاً، إذ أن التنبؤات الجوية كثيراً ما تخيب، والتجارب كثيراً مـا تختلف، والعادة قـد تُخْرق، والظنون تخطىء. . . . فلا يستطيع البشر أن يجزموا بشيء في مـوعد نـزول المطر وكميّتـه أو عمومـه على الأرض، أو خصـوصه لبقعـة معينـة، أو غـير ذلـك من الصفات في إنزال المطر. . .

ويبقى العلم اليقيني لله تعـالى وحده، وشتـان بين علم الله المحيط الشـامل اليقيني. . وأوهام البشر وظنونهم!

● ولكن، إن حجب الله تعـالى هذا العلم عن الخلق قبـل إعلام المـلائكـة الموكلة بالمطر، فإنه إذا أمر به علمته الملائكة الموكلون بذلك ومن يشاء الله تعالى

---

(١) سورة العنكبوت، الآية (٦٣).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير: ٣/٤٥٤، روح المعاني للآلوسي: ٢١/١١٢.

من خلقه، فلا يكون عندئذ ـ بعد هـذا الإعلام ـ غيباً بالنسبة لمن أعلمه الله تعالى به.

● ويلاحظ: أن الآية الكريمة عن مفاتح الغيب قال الله تعالى فيها «وينزل الغيث» فصيغة الآية لا تنفي أن أحداً غير الله تعالى لا يعلم إنزاله، بخلاف أول الآية في قوله سبحانه: ﴿**إن الله عنده علم الساعة**﴾ الذي يفيد الاختصاص.

ولكن جاء الحديث الصحيح وفسّر ذلك حيث أخبر النبي ﷺ عن هذه الخمس في سورة لقمان بأنها هي مفاتح الغيب التي لا يعلمها إلا هو، والله سبحانه وتعالى أعلم[1].

ومن هنا جاء التشديد عن النبي ﷺ على من يزعم معرفة شيء من ذلك لمعرفته بالأنواء، فينسبه إلى منازل القمر مثلاً:

ففي حديث زيد بن خالد، رضي الله عنه قال: صلّى بنا رسول الله ﷺ الصبح بالحديبية، على إثر سماء كانت من الليل، فلما انصرف، أقبل على الناس فقال: هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: قال أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر؛ فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي وكافر بالكوكب. وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب»[2].

---

(١) ثم وجدت بعد كتابة هذه الكلمات الإمام برهان الدين البقاعي رحمه الله يقول: «... ولما كانوا ينسبون الغيث إلى الأنواء، أسند الله الإنزال إليه ليفيد الامتنان، وعبّر بالجملة الفعلية للدلالة على التجرد فقال «وينزل الغيث» بلام الاستغراق القائمة مقام التسوير بـ «كل» وقد أفاد ذلك الاختصاصَ بالعلم بوقته ومكانه ومقداره وغير ذلك من شؤونه. فإن من فعل شيئاً حقيقة لم يعلم أحد وقت فِعْلِه قبل وقوعه إلا مِنْ قِبَلِهِ». نظم الدرر للبقاعي: ١٥/٢١٦ ـ ٢١٧.

(٢) أخرجه البخاري في الاستسقاء: ٢/٥٢٢، وفي الأذان والمغازي، ومسلم في الإيمان: ١/٨٣، ٨٤، وأبو داود في الطب: ٥/٣٧٢ ـ ٣٧٣ من مختصر المنذري، والنسائي في الاستسقاء ٣/١٦٥، ومالك في الموطأ: ١/٣٣٤ من المنتقى للباجي شرح الموطأ.

والخلاصة:

أن علم البشر متى يكون نزول المطر هو أمر مستحيل، ولا يرد على ذلك أن بعض الناس يدرك نزول المطر متى انعقدت أسبابه، بحيث يغلب على الظن ذلك، إذا نشأ السحاب الممطر عادة، وهبّت الرياح التي يصاحب هبوبَها نزولُ المطر، وتهيأ الجو المشبّع بالرطوبة، والذي تعتمد عليه، وعلى غيره من الأسباب الأخرى، الأرصادُ الجوية في حدسها وظنونها. وما لم تنعقد هذه الاسباب فلا أحد يعلم متى ينزل المطر(١).

جـ ـ المفتاح الثالث: علم ما في الأرحام

والمفتاح الثالث من مفاتح الغيب هو علم الأجنّة، فالله سبحانه وتعالى وحده الذي يعلم علماً يقينياً محيطاً شاملاً بما في الأرحام، في كل لحظة وفي كل طور، فيعلم قبل تلقيح البويضة بالحيوان المنوي، يعلم نوع الجنين الذي يقدّر الله تعالى خَلْقَه، هل هو ذكر أو أنثى؟ وهل هو تامّ الخلقة أم ناقص الخلقة؟ هل هو سليم من التشوهات أم فيه شيء من ذلك؟ هل هو واحد أو أكثر؟ وما هي طبائع هذا الجنين بعد الولادة؟.. الى ما هنالك من اختلاف في المقادير والصفات والطبائع والأخلاق والشمائل والكسب والصنائع، والتقلبات في مقدار العمر والرزق والأوقات والأماكن، وغير ذلك من الأحوال التي لا يحصيها إلا بارىء النسم ومحيي الرمم، سبحانه وتعالى.

ولما كانت للخلق في ذلك ـ لكثرة الملابسات والمعالجات ـ ظنون في وجود الحمل أولاً، ثم في كونه ذكراً أو أنثى ثانياً، ونحو ذلك، بسبب ما أقام الله تعالى من الأمارات الناشئة عن طول التجارب وكثرة الممارسة ـ عبّر بالعلم، فقال: «ويعلم ما في الأرحام» أي: من ذكر أو أنثى، حيّ أو ميت، وغير

---

(١) هذه الخلاصة أضافها صاحب الفضيلة الشيخ ناصر بن حمد الراشد، لما تفضّل بقراءة هذا البحث.

ذلك، وصيغة المضارع التي تدل على التجدد وحدوث الفعل شيئاً فشيئاً، ووقتاً بعد وقت[1].

● وقد يقع في أذهان بعض الناس: أن البشر يستطيعون أن يعلموا ما في الأرحام بمعرفة جنس الجنين، هل هو ذكر أو أنثى؟ وذلك عندما يمكن أن تغرز إبرة لسحب نقطة من السائل الامنيوسي لفحص خلال الجنين، هل تحمل شارة الذكورة (Y) أو شارة الأنوثة (X)، ويكون ذلك بعد مضي أربعة أشهر على الأقل من الحمل[2].

وقد يخيّل لبعضهم أن في هذا معرفة للغيب التي اختص الله تعالى بها.

● وهنا ينبغي أن نلاحظ جملة أمور، لا يجوز أن تغيب عن أذهاننا، إذ هي تلقي ضوءاً على ذلك وتحدد الإجابة وتنفي الشبهة والظن:

١ ـ إن الله سبحانه وتعالى يعلم علماً يقينياً قاطعاً، منذ الأزل، بكل التفاصيل والأحوال للجنين، من ذكورة وأنوثة، وصفات أخرى: كالتمام والنقص في الخلقة والعدد... الخ. فهو بالنسبة لله تعالى علم يقيني قاطع شامل، حتى قبل أن يوجد الجنين نفسه.

٢ ـ إن الطريقة التي سبقت الإشارة إليها في معرفة نوع الجنين، إنما تكون بعد مضي أربعة أشهر، وأما قبل ذلك فلا تكون متيسرة، إن لم تكن مستحيلة[3]، ولم يَخْفَ على الله سبحانه وتعالى العلم للجنين حتى في هذه المرحلة.

٣ ـ وكذلك عندما يستخرجون نقطة من السائل الامنيوسي بعد المدة السالفة

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للإمام البقاعي: ١٥/٢١٧.

(٢) انظر: خلق الانسان بين الطب والقرآن، د. محمد علي البار ص ٢٩٧ ـ ٢٩٩.

(٣) أما الجنين ذاته، فإنه لا يمكن تمييزه، ولو نزل سقطاً وشُرِّح تشريحاً كاملاً، فلا يعرف جنسه، لأن الغدة التناسلية لم تتميز، إذ هي لا تتميز قبل نهاية الأسبوع الرحمي السادس حتى تعرف هل هي خصية أو مبيض.

انظر: خلق الانسان بين الطب والقرآن، د. محمد علي البار ص ٢٩٩.

تكون قد أصبحت أمامهم في عالم الشهادة، أي لم تعد غيباً، ولم يعد معرفة ما يتعلق بالجنين ـ في هذه الحال ـ غيباً. والكلام منصبٌ على معرفة الغيب لا معرفة الشيء في عالم الشهادة والحس.

٤ ـ ثم، إن معرفة البشر ـ رغم ذلك ـ معرفة ظنية قابلة للخطأ والصواب، ومعرفة جزئية مبتورة ناقصة. فهي ظن وليست علماً يقينياً.

٥ ـ وفي خلال المدة التي تعقب الشهور الأربعة الأولى من بدء الحمل، لا يكون الجنين في مرحلة الغيب المطلق الذي حجبه الله تعالى عن الخلق جميعاً، بل إن المَلَك الموكل يعرف ذلك بإخبار الله سبحانه وتعالى، كما جاء في الحديث الصحيح عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله، ﷺ، وهو الصادق المصدوق «ان أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد»[1].

وفي حديث حذيفة بن أسِيْد، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «يدخل الملك على النطفة بعدما تستقر في الرحم بأربعين أو خمسة وأربعين ليلة، فيقول: يا ربّ: أشقيّ أو سعيد؟ فَيُكْتَبان. فيقول: أيْ ربِّ: أذكر أو أنثى؟ فيكتبان. ويكتب عمله وأثره وأجله ورزقه، ثم تطوى الصحف، فلا يزاد فيها ولا ينقص»[2].

ففي هذه المرحلة قد أعلم الله سبحانه وتعالى الملك الموكل بالنطفة بالكلمات السابقة، فأصبح الملك يعرفها، فخرجت عندئذ عن كونها من الغيب المطلق

---

(١) أخرجه البخاري في القدر: ٤٧٧/١١ وفي التوحيد والأنبياء وبدء الخلق، ومسلم في القدر: ٢٠٣٦/٤، والترمذي في القدر: ٣٠٢/٣، وابن ماجه في المقدمة: ٢٩/١، والبغوي في شرح السنة: ١٢٨/١ ـ ١٢٩. وانظر: فتح الباري لابن حجر: ٤٧٨/١١ ـ ٤٧٩.

(٢) أخرجه مسلم في القدر: ٢٠٣٧/٤، وأحمد في المسند: ٧/٤. وانظر بالتفصيل شرح هذه الأحاديث والكلام على المدة التي تكون فيها الكتابة. فتح الباري: ٤٧٨/١١ ـ ٤٩١. التبيان في أقسام القرآن لابن القيم ٣٤٥ ـ ٣٤٩.

الذي اختص الله تعالى به، ولا مانع بعد ذلك أن يهيء الله تعالى للإنسان أداة أو وسيلة للتعرف على شيء من ذلك ظناً أو يقيناً، وكأن عموم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله تعالى قد دخله التخصيص بحديث ابن مسعود وحديث حذيفة ابن أسيد، رضي الله عنهما، فيقبل أيضاً تخصيصاً آخر بدليل ظني[1].

وأما المرحلة السابقة لإعلام الله تعالى المَلَك بذلك، فإنها محجوبة قطعاً عن كل الخلق ولا يعلمها إلا هو سبحانه وتعالى: **﴿الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد. وكل شيء عنده بمقدار﴾**[2].

د ـ المفتاح الرابع: الكسب في المستقبل

وما تدري نفس ماذا تكسب غداً، هذا هو المفتاح الرابع، الكسب فيما يستقبل من الزمن، من خير أو شر، من شقاء أو سعادة، ومن كسب مادي أو معنوي، ومن صداقة أو عداوة، ومن صحة أو مرض، من أحوال الناس وتقلباتهم في معاملته لهم ومعاملتهم له... وغير ذلك من الأحوال والكسب بعامة، لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى.

● وقد جعل الله كل ذلك غيباً مغلقاً أمام الإنسان، يتطلّع المرء لمعرفة شيء منه، ولكنه لن يستطيع أن يعود من ذلك بشيء ـ إلا أن يكون ذلك الشيء جملة من الأوهام والظنون، مهما حاول بكل وسيلة، ومهما أوسع الحيلة للتعرف على ما يتشوق إليه من ذلك الغيب المجهول الذي يحيط به.

---

(١) اللفظ العام ظني الدلالة قبل التخصيص وبعده عند فريق من الأصوليين فهو يقبل التخصيص مطلقاً بدليل ظني فلا يشترط في دليل التخصيص أن يكون قطعياً؛ إذ ما من عام ألا وقد دخله التخصيص. وذهب فريق من الأصوليين إلى أن العام الذي لم يخصص قطعي الدلالة في العموم فإذا خصص بدليل قطعي صار ظاهراً في دلالته على ما بقي بعد التخصيص، أي ظنياً في الدلالة على العموم، وعندئذ يجوز تخصيصه ثانية بدليل آخر ظني. وعلى هذا لا مانع من تخصيص عموم علم الله للغيب في مسألتنا بدليل ظني غير قطعي بالوسائل المعروفة بعد تخصيصها بالحديثين السابقين. وانظر: علم أصول الفقه لخلاف ص ١٨٥.

(٢) سورة الرعد، الآية (٨).

يقول الإمام البقاعي، رحمه الله:

● «ولكون الإنسان لا يعلم شيئاً عن ذلك الكسب ـ مع أنه ألصق الأشياء به وألزمه له ـ مع إيساعه الحِيَل في معرفته عبَّر فيه بالدراية، لأنها تدل على الحيلة بتصريف الفكر وإجالة الرأي؛ إذ إن مادة «درى» تدور على الدوران، ومن لوازمه إعمال الحيلة وإمعان النظر، فهي أخص من مطلق العلم، فقال سبحانه: «وما تدري نفس» من الأنفس البشرية وغيرها «ماذا تكسب غداً»، أي: في المستقبل من خير أو شر بوجه من الوجوه.

وفي نفي علم ذلك عن العبد، مع كونه ألصق الأشياء به، دليل ظاهر على نفي علم ما قبله عنه، لأنه أخفى منه ـ وقد تقدم اثبات علمه سبحانه له ـ فصار على طريق الحصر.

وعلم أيضاً أنه لا يُسْنَد إلى العبد إلا على طريق الكسب، لأنه لو كان مخلوقاً له لعلمه قطعاً، فثبت أنه سبحانه وتعالى خالقه، فعلم اختصاصه بعلمه من هذا الوجه ايضاً»[1].

هـ ـ المفتاح الخامس: مكان الموت..

وهذا هو المفتاح الخامس من مفاتح الغيب: مكان الموت ونهاية الرحلة في هذه الحياة الدنيا، وهي المصير المحتوم لكل مخلوق، ومع ذلك لا يستطيع الانسان، ولا تستطيع أي نفس كانت أن تدري مكان موتها، هل هو في الأرض التي ولدت فيها، أم في أرض غيرها؟ في هذا البلد أو ذاك من بلاد الله الواسعة المترامية الأطراف، وفي أي بقعة أو مكان من هذا البلد أو ذاك..؟ وهل يكون ذلك في بر أو بحر أو سهل أو جبل... إلى غير ذلك مما يقف الإنسان أمامه عاجزاً، إذ لا يعلم ذلك كله إلا الخالق سبحانه الذي أحاط بكل شيء علماً.

---

(١) نظم الدرر للبقاعي: ١٥/٢١٨ ـ ٢١٩. وانظر: فتح الباري: ١/١٢٤، تفسير الألوسي: ٢١/١١.

وقد جاء في الحديث: «إذا أراد الله قبض روح عبد بأرض جعل له فيها ـ أو قال بها ـ حاجة»[1].

● «ولما كان علم مكان الموت، لا يعلمه أحد من الناس بنوع حيلة، مع شدة حذره منه وحبه ـ لو أنفق جميع ما يملكه لكي يعلمه ـ عبّر عنه بما عبر عن الذي قبله، فقال مؤكداً بإعادة النافي والمسند: «وما تدري» وأظهر، لأنه أوضح وأليق بالتعميم فقال: «نفس» أي من البشر وغيره «بأي أرض تموت»، ولم يقل: بأي وقت، لعدم القدرة على الإنفكاك عن الوقت، مع القدرة على الإنفكاك عن مكان معين، وإحاطة العلم بكراهة كل أحد للموت، فكان ذلك أدلّ دليل على جهله بموضع موته، إذ لو علم به لَبَعُدَ عنه ولم يقرب منه»[2].

علم الله الشامل للغيب

ولما كان سبحانه وتعالى قد أثبت لنفسه، في آية سورة لقمان، اختصاص العلم بتلك الأشياء التي هي مفاتح الغيب، أثبت بعدها ما هو أعم منها، لتدخل فيها ضمناً، فيصير مخبراً بعلمه لها مرتين، .. فقال على وجه التأكيد: «إن الله عليم» أي شامل العلم للأمور كلها، كلياتها وجزئياتها، فأثبت العلم المطلق لنفسه سبحانه، بعد أن نفى ذلك عن غيره في هذه الخمس، تارة نصاً، وأخرى بطريق الأَوْلَىٰ، أو باللازم، فانطبق الدليل على الدعوىٰ.

ولما أثبت العلم على هذا الوجه أكّده لأجل ما سيقت له السورة بقوله:

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ص ٣٧٠، وابن حبان ص ٤٤٩ من موارد الظمآن، والإمام أحمد في المسند: ٣/٤٢٩، والترمذي في القدر: ٣/٣٠٧ وقال: هذا حديث صحيح، وأبو نعيم في الحلية ٨/٣٧٤، وعزاه الهيثمي في المجمع للبزار والطبراني وقال: رجاله رجال الصحيح، المجمع: ٧/١٩٦. وانظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني: ٣/٢٢١ ـ ٢٢٢ وقد عزاه فيها أيضاً لابن عدي في الكامل والحاكم. وأخرج ابن ماجة بمعناه من حديث ابن مسعود: إذا كان أجل أحدكم بأرض أَوْثَبَتْهُ إليها الحاجة، فإذا بلغ أقصى أثره قبضه الله سبحانه، فتقول الأرض يوم القيامة: ربِّ هذا ما استودعتني». وإسناده صحيح. سنن ابن ماجة، كتاب الزهد: ٢/١٤٢٤.

(٢) نظم الدرر للبقاعي: ١٥/٢١٩.

«خبير» أي يعلم خبايا الأمور وخفايا الصدور، كما يعلم ظواهرها وجلاياها، كلٌّ عنده سواء، فهو الحكيم في ذاته وصفاته.

ولذلك أخفى سبحانه هذه المفاتيح عن عباده؛ لأنه لو أطلعهم عليها لفات كثير من الحِكَم باختلاف هذا النظام، على ما فيه من الإحكام، والله تعالى الموفق[1].

حكمة حصر الغيب بهذه المفاتح

وأمور الغيب، ليست محصورة في هذه الخمس التي جاءت في سورة لقمان وفي حديث مفاتيح الغيب ـ الذي سبق ـ فهي لا يحصيها إلا الله سبحانه وتعالى الذي يعلمها كلها، بكلياتها وجزئياتها، وظواهرها وبواطنها.

ولتقريب هذا إلى الأذهان جاء التعبير بمفاتح الغيب، إذ إن أقرب الأشياء إلى الإطلاع على ما غاب عن الإنسان هو الأبواب، والمفاتح أيسر الأشياء لفتح الباب، فإن كان أيسر الأشياء لا يعرف موضعها، فما فوقها أحرى ألّا يُعْرف ولا يُعلم علماً حقيقياً. وإن كان لبعض الغيوب أسباباً قد يستدل بها عليها، لكن ليس ذلك حقيقياً، ولما كان جميع ما في الوجود محصوراً في علمه شبَّهه بالمخازن واستعار المفتاح لأبواب المخازن تلك.

● والحكمة في حصر أمور الغيب في هذه الخمسة: الإشارة إلى حصر العوالم في هذه الخمس من المفاتح:

● فالمفتاح الأول: «علم الساعة» فيه إشارة إلى علوم الآخرة كلها، ويوم القيامة أولها، وهو مفتاح علومها، وإذا انتفىٰ علم الأقرب انتفىٰ ما بعده من باب أولىٰ.

● والمفتاح الثاني: «إنزال الغيث» إشارة إلى علوم العالم العلوي، وخصَّ منه

---

(١) نظم الدرر للبقاعي: ١٥/٢٢١.

المطر، مع أن له أسباباً قد تـدل بمجرى العـادة وسُنَّة الله الكـونية عـلى وقوعـه وإنزاله، لكنه من غير تحقيق وعلم يقيني.

● والمفتـاح الثـالث: «علم مـا في الأرحـام» إشـارة إلى مـا يـزيـد في النفس وينقص، وخص الرحم بالذكر، لكون الأكثر يعرفونها بـالعادة، ومـع ذلك نفى أن يعرف أحدٌ حقيقتها، فغيرها منفيٌّ بطريق الأولىٰ.

● والمفتاح الرابـع: «علم ما في غـدٍ» إشارة إلى أنـواع الزمـان وما فيهـا من الحوادث والكسب، وعبَّر بلفظ «غدٍ» لتكون حقيقته أقرب الأزمنـة، وإذا كان ـ مع قربه ـ لا يعلم حقيقته وحقيقة ما يقع فيه، مع إمكان الأمارة والعلامة الدالة عليه، فما بعده أَوْلَى أنه لا يُعْرف.

● والمفتاح الخامس: «علم مكان الموت» إشارة إلى أمور العـالم السفليّ، مـع أن عادة أكثر الناس أن يموت ببلده، ولكن ليس ذلـك حقيقة، بـل لو مـات في بلده، لا يعلم في أي بقعة يدفن فيها، ولو كان هناك مقـبرة لأسلافـه الماضـين، بل ولو كان له قبر أعدَّه لنفسه[1].

وقال صاحب تفسير المنار، رحمه الله:

● «العوالم ثلاثة: الأول ـ القريب الداني الذي نقيم فيه قبل الموت،
والثاني ـ الذي نقيم فيه بعد الموت أبداً إلى غير نهاية،
والثالث ـ الوسط بينهما، وهو ما نقيم فيه بين العالَمين،
حتى يتم جمعنا بانتهاء الدنيا ونفد على الله جميعاً.

فـالثاني والثـالث: من الغيب الـذي ليس مشهـوداً لنـا، ومفتحهـما السـاعـة والموت، وأما الأول: فمنه ما هـو مشهود لنـا، ولا يحصل فيـه زيادة يـبرزها الله

---

(١) ذكر هذه الحكم الحافظ ابن حجر في فتح الباري: ١٣/ ٣٦٥ عن الشيخ أبي محمد، عبدالله بن سعـد بن أبي جمرة من علماء الحـديث، مالكي أصله من الأنـدلس، له مختصر البخـاري وبهجة النفوس، ووفاته بمصر سنة (٦٩٥) هـ. انظر: الأعلام للزركلي: ٤/ ٨٩.

تعالى من العدم، كالأحجار والمعادن ونحوها من الموجودات، التي وجدت في الكون تدريجاً، أو دفعة واحدة، ومنه ما هو غيب، وهو ما يتجدد بصورة مخصوصة لم تكن مشهودة، وهو النبات، ومفتحه الغيث، والحيوان ومفتحه الأرحام غالباً، أو عبَّر بها عنه، وكسب الحيوان وعمله، وهو مفتح وخزانة من خزائن الغيب[1].

طريقة القرآن:

والسياق القرآني يعرض هذه المؤثرات العميقة التأثير في القلب البشري في رقعة فسيحة هائلة...

رقعة فسيحة في الزمان والمكان، وفي الحاضر الواقع، والمستقبل المنظور، والغيب السحيق، وفي خواطر النفس، ووثبات الخيال: ما بين الساعة البعيدة المدى، والغيث البعيد المصدر، وما في الأرحام الخافي عن العيان، والكسب في الغد، وهو قريب من الزمان ومغيب في المجهول... وموضع الموت والدفن، وهو مبعد في الظنون.

إنها رقعة فسيحة الآماد والأرجاء، ولكن اللمسات التصويرية العريضة بعد أن تتناولها من أقطارها، تدِقّ في أطرافها، وتجمع هذه الأطراف كلها عند نقطة الغيب المجهول، وتقف بها جميعاً أمام كوة صغيرة مغلقة، لو انفتح منها سم الخياط لاستوى القريب خلفها بالبعيد، ولانكشف منها القاصي والداني.. ولكنها تظل مغلقة في وجه الإنسان، لأنها فوق مقدور الإنسان، ووراء علم الإنسان، تبقى خالصة لله لا يعلمها غيره، إلا بإذن منه وإلا بمقدار[2].

مشهد لعلم الله للغيب «في ظلال القرآن»

وفي مجال الغيب المكنون، كما في كل مجال من مجالات الكون وآفاقه وآماده،

(١) انظر: تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا: ٧/٤٦٨ - ٤٦٩.
(٢) في ظلال القرآن: ٢١/٢٧٩٩.

يحيط علم الله سبحانه، وهو العليم بكل شيء، بكل ما في الوجود، كبيره وصغيره، ظاهره وخفيّه، دقّه وجِله، في مجال الزمان: ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، وفي مجال المكان: أرضاً وسماء وما بينهما، وفي مجال الحياة والأحياء، مهما بلغت كثرةً وعظمة؛ ذاك كله يحيط الله تعالى به علماً:

﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو، ويعلم ما في البر والبحر، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها، ولا حبة في ظلمات الأرض، ولا رطب ولا يابس، إلا في كتاب مبين﴾(١).

«إنها صورة لعلم الله الشامل المحيط، الذي لا يند عنه شيء في الزمان والمكان، في الأرض ولا في السماء، في البر ولا في البحر، في جوف الأرض ولا في طباق الجو، من حي وميت ويابس ورطب. . .

ولكن أين هذا الذي نقوله نحن ـ بأسلوبنا البشري المعهود ـ من ذلك النسق القرآني العجيب؟ وأين هذا التعبير الإحصائي المجرد، من ذلك التصوير العميق الموحي؟

إن الخيال البشري لينطلق وراء النص القصير يرتاد آفاق المعلوم والمجهول، وعالم الغيب وعالم الشهود، وهو يتّبّع ظلال علم الله في أرجاء الكون الفسيح، ووراء حدود هذا الكون المشهود. . وإن الوجدان ليرتعش وهو يستقبل الصور والمشاهد من كل فج وواد، وهو يرتاد ـ أو يحاول أن يرتاد ـ أستار الغيوب المختومة في الماضي والحاضر والمستقبل؛ البعيد الآماد والآفاق والأغوار. . مفاتحها كلها عند الله، لا يعلمها إلا هو. . ويجول في مجاهل البر وفي غيابات البحر، المكشوفة كلها لعلم الله. ويتبّع الأوراق الساقطة من أشجار الأرض، لا يحصيها عدّ، وعين الله على كل ورقة تسقط، هنا وهنا وهناك. ويلحظ كل حبة مخبوءة في ظلمات الأرض لا تغيب عن عين الله، ويرقب كل رطب وكل يابس في هذا الكون العريض، لا يندّ منه شيء عن علم الله المحيط. .

إنها جولة تدير الرؤوس، وتذهل العقول. جولة في آمادٍ من الزمان، وآفاق

---

(١) سورة الأنعام، الآية (٥٩).

من المكان، وأغوار من المنظور والمحجوب، والمعلوم والمجهول. . جولة بعيدة موغلة مترامية الأطراف، يعيا بتصرف آمادها الخيال. . وهي ترسم هكذا دقيقةً دقيقةً كاملة شاملة في بضع كلمات. . .

ألا إنه الإعجاز!

وننظر في هذه الآية القصيرة من أي جانب فنرى هذا الإعجاز، الناطق بمصدر هذا القرآن.

ننظر إليها من ناحية موضوعها، فنجزم للوهلة الأولى بأن هذا كلام لا يقوله بشر، فليس عليه طابع البشر. . إن الفكر البشري ـ حيث يتحدث عن مثل هذا الموضوع: موضوع شمول العلم وإحاطته ـ لا يرتاد هذه الآفاق. . إن مطارح الفكر البشري وانطلاقاته في هذا المجال لها طابع آخر ولها حدود. إنه ينتزع تصوراته التي يعبر عنها من اهتماماته. . فما اهتمام الفكر البشري بتقصي وإحصاء الورق الساقط من الشجر، في كل أنحاء الأرض؟ إن المسألة لا تخطر على بال الفكر البشري ابتداء. لا يخطر على باله أن يتتبع ويحصي ذلك الورق الساقط في أنحاء الأرض، ومن ثم لا يخطر له أن يتجه هذا الاتجاه ولا أن يعبّر هذا التعبير عن العلم الشامل! إنما الورق الساقط شأن يحصيه الخالق، ويعبر عنه الخالق!

وما اهتمام الفكر البشري بكل حبة مخبوءة في ظلمات الأرض؟ إن أقصى ما يحفل به بنو البشر هو الحَبّ الذي يخبؤونه هم في جوف الأرض ويرتقبون إنباته. . فأما تتبع كل حبة مخبوءة في ظلمات الأرض، فمما لا يخطر للبشر على بال أن يهتموا به، ولا أن يلحظوا وجوده، ولا أن يعبروا به عن العلم الشامل! إنما الحب المخبوء في ظلمات الأرض شأن يحصيه الخالق، ويعبر عنه الخالق!

وما اهتمام الفكر البشري بهذا الإطلاق: «ولا رطب ولا يابس». . إن أقصى ما يتجه إليه تفكير البشر هو الانتفاع بالرطب واليابس ما بين أيديهم. . فأما التحدث عنه كدليل للعلم الشامل. فهذا ليس من المعهود في اتجاه البشر

وتعبيراتهم كذلك! إنما كل رطب وكل يابس شأن يحصيه الخالق، ويعبر عنه الخالق!

ولا يفكر البشر أن تكون كل ورقة ساقطة وكل حبة مخبوءة، وكل رطب وكل يابس في كتاب مبين، وفي سجل محفوظ.. فما شأنهم بهذا، وما فائدته لهم؟ وما احتفالهم بتسجيله؟ إنما الذي يحصيه ويسجله هو صاحب الملك، الذي لا يندُّ عنه شيء في ملكه.. الصغير كالكبير، والحقير كالجليل، والمخبوء كالظاهر، والمجهول كالمعلوم، والبعيد كالقريب..

إن هذا المشهد الشامل الواسع العميق الرائع.. مشهد الورق الساقط من شجر الأرض جميعاً، والحب المخبوء في أطواء الأرض جميعاً، والرطب واليابس في أرجاء الأرض جميعاً.. إن هذا المشهد كما أنه لا يتجه إليه الفكر البشري والاهتمام البشري، وكذلك لا تلحظه العين البشرية، ولا تلمّ به النظرة البشرية.. إنه المشهد الذي يتكشف هكذا بجملته لعلم الله وحده، المشرف على كل شيء، المحيط بكل شيء.. الحافظ لكل شيء، الذي تتعلق مشيئته وقدرته بكل شيء.. الصغير كالكبير، والحقير كالجليل، والمخبوء كالظاهر، والمجهول كالمعلوم، والبعيد كالقريب..

والذين يزاولون الشعور ويزاولون التعبير من بني البشر يدركون جيداً حدود التصور البشري، وحدود التعبير البشري أيضاً. ويعلمون ـ من تجربتهم البشرية ـ أن مثل هذا المشهد، لا يخطر على القلب البشري، كما أن مثل هذا التعبير لا يتأتى له أيضاً.. والذين يمارون في هذا عليهم أن يراجعوا قول البشر كله، ليروا إن كانوا قد اتجهوا مثل هذا الاتجاه أصلاً!»[1].

(١) في ظلال القرآن: ٧/١١١١ ـ ١١١٣.

هذا معلوم.. وذاك مجهول

- مؤهلات الخلافة في الأرض
- الفطرة والعقل والرسل.. دعاة إلى الله
- علَّم الإنسان ما لم يعلم
- وحجب عنه علم الغيب..
- وكلُّ ذاك لحكمةٍ يعلمها سبحانه...



هذا معلوم.. وذاك مجهول

مؤهلات الخلافة في الأرض:

جعل الله سبحانه وتعالى الإنسان خليفة في هذه الأرض ليعمرها وفق منهج الله سبحانه وتعالى ولينشىء فيها الحضارة الإنسانية المهتدية التي ترقّي في الإنسان جوانب إنسانيته، ولما كان الانسان لا يستطيع أن يقوم بأعباء هذه الوظيفة الكبرىٰ في الوجود إلا بتهيئةٍ من الله خاصة، فقد زوّده الله تعالى بكل ما يحتاج إليه مما يساعده ويعينه عل القيام بوظيفته تلك.

فقد منح الله تعالى الإنسان نعمة البيان والعلم ليميز بين المعلومات بالبيان الذهني، وليعبر عنها ويترجم عنها فيها لغيره بالبيان اللفظي اللساني، بل وليرسم تلك الألفاظ بالكتابة والبيان الرسمي الخطي ليتبين الناظرُ فيها جميع معانيها كما يتبين للسامع معاني الألفاظ التي تطرق سمعه:

﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم الذي علَّم بالقلم علَّم الإنسان ما لم يعلم﴾[1].

﴿الرحمن علَّم القرآن. خلق الانسان. علَّمه البيان﴾[2].

---

(١) سورة العلق، الآيات: (١ ـ ٥).

(٢) سورة الرحمن، الآيات (١ ـ ٤).

وامتنّ الله سبحانه وتعالى على هذا الانسان بالحواس التي يتعرف من خلالها على العالم الخارجي المشهود من حوله وهو موضوع البيان السابق، فقال سبحانه:

﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون﴾[1].

ومما أعطاه الله سبحانه وتعالى للإنسان وعلّمه إياه: كلُّ ما فيه صلاحه في دنياه وفي آخرته، فكل ما يصلح هذين للإنسان علمه إياه، وكل ما لا حاجة له به في معاشه ومعاده منع علمه عنه، إذ جهله به لا يضر، وعلمه به لا ينتفع به انتفاعاً طائلاً. ومن هنا تظهر لنا حكمة الله سبحانه وتعالى في استئثاره بعلم الغيب وحجبه عن الإنسان، كما تظهر حكمته فيما أعطاه للإنسان ومنحه من مواهب وملكات للتعرف على عالم الشهادة من حوله.

الفطرة والعقل والرسل. . دعاة إلى الله

لقد يسّر الله تعالى للإنسان طرق ما هو محتاج إليه من العلم أتمّ تيسير، وكل ما كانت حاجته إليه من العلم أعظم كان تيسيره إياه عليه أتمَّ وأعظم.

فأعطاه الله تعالى معرفة خالقه سبحانه والإقرار به، ويسَّر عليه طرق هذه المعرفة، فليس في العلوم ما هو أجلُّ منها، ولا أظهر عند العقل والفطرة.

وليس في طرق العلوم التي تنال بها أكثر من طرقها ولا أدلَّ ولا أبْين ولا أوضح؛ فكل ما يراه الإنسان بعينه أو يسمعه بأذنه أو يعقله بقلبه، وكل ما يخطر بباله، وكل ما تناله حواسه، هو دليل على الرب تبارك وتعالى، فطرق العلم بالخالق سبحانه فطرية ضرورية، ليس في العلوم أجلىٰ منها ولا أظهر عند التأمل بعين مبصرة وقلب متدبر.

ولقد نصب الله تعالى من الأدلّة على وجوده ووحدانيته وصفات كماله، على

(١) سورة النحل، الآية (٧٨).

اختلاف انواعها مما لا يطيق حصره إلا الله، ثم ركز ذلك في الفطرة ووضعه في العقل جملةً، ثم بعث الرسل مذكّرين به: ﴿إنما أنت مذكر﴾[1]، ومفصّلين لما في الفطرة والعقل، ومعذرين ومقيمين البينة على أصحاب الفطر الفاسدة لئلا يحتجوا على الله بأنه ما أرشدهم ولا هداهم، فيحق القول عليهم بإقامة الحجة، فلا يكون الله سبحانه ظالماً لهم بتعذيبهم: ﴿إن هو إلا ذكر وقرآن مبين، لينذر من كان حياً، ويحقّ القول على الكافرين﴾[2]، ﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيٍّ عن بينة وإن الله لسميع عليم﴾[3].

علَّم الإنسان ما لم يعلم:

وأما العلوم المتعلقة بصلاح دنيا الانسان ومعاشه، والتي جعلها الله تعالى أداة لتحقيق وظيفة الخلافة في الأرض وعمارتها، فقد أعطى الله تعالى منها الإنسان وعلمه بقدر حاجته، من علوم الطب والزراعة والصناعات المختلفة بشتى أنواعها ومستوياتها، ووجوه التجارة والمكاسب والمعاملات، وغير ذلك مما فيه قيام حياة الإنسان ومعاشه.

وحجب عنه علم الغيب..

ولئن كان ذلك العلم الذي وهبه الله تعالى للإنسان، وجعل عنده استعداداً لتعلمه وتلقيه، لئن كان ضرورياً له، إن هناك علماً لا شأن له فيه ولا مصلحة له في تعلُّمه، ولا قابلية عنده له، وهذا هو ما حجبه الله تعالى عن الإنسان وجعله غيباً عنه.

ومن هذا الذي حجبه الله تعالى عن الإنسان: علم الغيب، وعلم ما كان وما يكون، والعلم بعدد القطر وأمواج البحر، وذرات الرمال، ومساقط الأوراق، وعدد النجوم والكواكب ومقاديرها، وعلم ما فوق السموات وما تحت

(١) سورة الغاشية، الآية (٢١).
(٢) سورة يس، الآية (٦٩).
(٣) سورة الأنفال، الآية (٤٢).

الثرى، وما في لجج البحار وأقطار العالم، وما يكنّه الناس في صدورهم، وما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد، إلى سائر ما عزب عنهم علمه.

فمن تكلّف معرفة ذلك فقد ظلم نفسه وبخس من التوفيق حظه، ولم يحصل إلا على الجهل المركب والخيال الفاسد في أكثر أمره.

وجرت سنة الله تعالى وحكمته: أن هذا الضرب من الناس أجهلهم بالعلم النافع وأقلهم صواباً؛ فترى عند مَنْ لا يرفعون به رأساً من الحِكَم والعلم الحق الذي ينفع صاحبه ما لا يخطر ببالهم أصلاً، وذلك من حكمة الله في خلقه، وهو العزيز الحكيم، ولا يعرف هذا إلا من اطلع على ما عند القوم ـ المتكلفين لمعرفة ما حجبه الله عنهم ـ من أنواع الخيال وضروب المحال وفنون الوساوس والهوى والهوس والخبط، وهم يحسبون أنهم على شيء، ألا أنهم هم الكاذبون، فالحمدلله الذي منَّ على المؤمنين: **﴿إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾**(1).

وكل ذاك لحكمة بالغة. . :

ومن حكمته سبحانه وتعالى اختصاصه بعلم الساعة ومعرفة الآجال، ومنع علم ذلك عن الناس، فإن في ذلك من الحكمة البالغة ما لا يحتاج إلى نظر.

فلو عرف الإنسان مقدار عمره، فإن كان قصير العمر لم يهنأ بالعيش، وكيف يتهنأ به وهو يترقب الموت في ذلك الوقت، فلولا طول الأمل لخربت الدنيا، وإنما عمارتها بالآمال. وإن كان طويل العمر وقد تحقق ذلك، فهو واثق بالبقاء فلا يبالي بالإنهماك في الشهوات والمعاصي وأنواع الفساد، ويقول: إذا قرب الوقت أحدثتُ توبة. وهذا مذهب لا يرتضيه الله عز وجل من عباده ولا يقبله منهم، ولا تصلح عليه أحوال العالم. ولا يصلح العالم إلا على هذا الذي اقتضته حكمته وسبق في علمه.

---

(1) سورة آل عمران، الآية (١٦٤).

فلو أن عبداً من عبيدك ـ أيها الانسان ـ عمل على أن يسخطك أعواماً ثم يرضيك ساعة واحدة إذا تيقن أنه صائر إليك، لم تقبل منه، ولم يفز لديك بما يفوز به من كان همُّه رضاك.

وكذا سُنَّة الله عز وجل، أن العبد إذا عاين الانتقال إلى الله تعالى لم ينفعه توبة ولا إقلاع، قال تعالى: **﴿وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدَهم الموتُ قال إني تبت الآن﴾**[1]، وقال: **﴿فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين. فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا، سنة الله التي قد خلت في عباده﴾**[2].

... فمن حكمة الله ونعمه على عباده أن ستر عنهم مقادير آجالهم ومبلغ أعمارهم، فلا يزال الكيِّس يترقب الموت وقد وضعه بين عينيه، فينكفُّ عما يضره في معاده، ويجتهد فيما ينفعه ويُسَرُّ به عند القدوم[3].

---

(١) سورة النساء، الآية (١٨).
(٢) سورة غافر، الآيتان (٨٤ و٨٥).
(٣) انظر: مفتاح دار السعادة لابن القيم رحمه الله: ١/ ٢٨٠ ـ ٢٨٤.



حكم ادعاء علم الغيب

- تمهيد: لا يعلم الغيب إلا الله
- حكم ادعاء علم الغيب والاستسقاء بالنجوم

أ - القرطبي ب - ابن العربي جـ - سليمان بن عبدالله

- صور أخرى لادعاء علم الغيب:

الكهانة - العرافة - التنجيم



حكم ادعاء علم الغيب

لا يعلم الغيب إلا الله:

استأثر الله سبحانه وتعالى بعلم الغيب، واختص به نفسه، فليس لأحد من الخلق أن يزعم أنه قادر على معرفة ما استأثر الله سبحانه وتعالى به، فقد قال الله عز وجل: **﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو، ويعلم ما في البر والبحر، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها، ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾**[1]، **﴿قل لا يعلم مَن في السموات والأرض الغيبَ إلا الله﴾**[2].

ومفاتح الغيب هذه هي التي أشار الله تعالى إليها وفصّلها في سورة لقمان: **﴿إن الله عنده علم الساعة، وينزّل الغيث، ويعلم ما في الأرحام، وما تدري نفس ماذا تكسب غداً، وما تدري نفس بأي أرض تموت، إن الله عليم خبير﴾**[3].

● ولم يطلع الله تعالى أحداً على الغيب إلا من اختاره من رسله لإطلاعه على

---

(١) سورة الأنعام، الآية: (٥٩).
(٢) سورة النمل، الآية: (٦٥).
(٣) سورة لقمان، الآية (٣٤).

بعض أنواع الغيوب، مما شاءت حكمة الله تعالى أن يعلمه لهم في مرحلةٍ من مراحل الغيب ـ على ما سبق بيانه في أنواع الغيب، فقال سبحانه وتعالى: **﴿وما كان الله ليطلعكم على الغيب، ولكنّ الله يجتبي من رسله من يشاء﴾**[1].

وقال أيضاً: **﴿عالم الغيب فلا يُظْهِر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول﴾**[2].

● وأما ما استأثر الله تعالى بعلمه، فلا يعلمه أحد من الخلق حتى الرسل عليهم الصلاة والسلام، ولذلك قالت عائشة رضي الله عنها: «من زعم أن رسول الله، ﷺ، يخبر بما يكون في غدٍ فقد أعظم على الله الفِرية؛ والله تعالى يقول: **﴿قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله﴾**[3].

ولذلك ينبغي أن نتعرف على حكم من يدَّعي شيئاً من علم الغيب الذي استأثر الله تعالى به، أو لم يستأثر به، ولكن لم يهيء للخلق أسباب المعرفة له، ويدخل في ذلك حكم التنجيم والكهانة والعرافة..

وفيما يلي إشارة إلى حكم ذلك كله، كما ذكره علماء الإسلام في كتب التفسير وكتب التوحيد، ونجتزىء ببعض النصوص الدالة على ذلك. وبالله التوفيق:

حكم ادعاء علم الغيب والاستسقاء بالنجوم والكواكب:

أ ـ يقول الإمام القرطبي في تفسيره «الجامع لأحكام القرآن»[4]:

قال علماؤنا: أضاف سبحانه علم الغيب إلى نفسه في غير ما آيةٍ من كتابه إلا من اصطفى من عباده.

فمن قال: إنه يَنْزِلُ الغيث غداً، وجزم بذلك، فهو كافر، سواء أخبر عنه

---

(١) سورة آل عمران، الآية: (١٧٩).
(٢) سورة الجن، الآية (٢٧).
(٣) قطعة من حديث أخرجه مسلم في كتاب الايمان، باب معنى قول الله عز وجل: «ولقد رآه نزلة أخرى». ١/١٥٩.
(٤) الجامع لأحكام القرآن: ٢/٧ وما بعدها.

بأمارة ادّعاها أم لا. وكذلك من قال: إنه يعلم ما في الرحم، فهو كافر، فإن لم يجزم وقال: إن النَّوْءَ[1] يُنزل الله به الماءَ عادةً، وأنه سبب الماء عادة، وأنه سبب الماء على ما قدّره وسبق في علمه لم يُكَفَّر؛ إلا أنه يستحب له ألّا يتكلم به، فإن فيه تشبيهاً بكلمة أهل الكفر، وجهلاً بلطيف حكمته؛ لأنه يُنزِّل متى شاء، مرة بنَوْء كذا ومرة دون النوء؛ قال الله تعالى ـ في الحديث القدسي ـ ﴿**أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر بالكوكب**﴾[2].

قال الشافعي، رحمه الله: لا أحب أحداً أن يقول: مُطِرنا بنوء كذا أو كذا، وإن كان النَّوْء عندنا الوقت المخلوق لا يضر ولا ينفع، ولا يمطر ولا يحبس شيئاً من المطر، والذي أحب أن يقول: مُطِرنا وقت كذا كما تقول مُطِرنا شهر كذا، ومن قال: مُطِرنا بنوء كذا، وهو يريد أن النَّوء أنزل الماء، كما عنى بعض أهل الشرك من الجاهلية فهو كافر، حلال دمه إن لم يتب.

وقال أبو عمر بن عبد البر: وأما قوله عليه الصلاة والسلام حاكياً عن الله سبحانه: «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر» فمعناه عندي على وجهين:

أما أحدهما ـ فإن المعتقد بأن النَّوْء هو الموجب لنزول الماء، وهو المنشيء للسحاب دون الله عز وجل، فذلك كافر كفراً صريحاً، يجب استتابته عليه وقَتْلُه إن أبى، لنبذه الإسلام وردِّه القرآن.

والوجه الآخر ـ أن يعتقد أن النوء يُنْزِل الله به الماءَ، وأنه سبب الماء على ما قدَّره الله وسبق في علمه، وهذا وإن كان وجهاً مباحاً، فإن فيه أيضاً كفراً بنعمة الله عز وجل، وجهلاً بلطيف حكمته في أنه ينزل الماء متى شاء، مرة بنوء كذا ومرة بنوء كذا، وكثيراً ما ينوء النَّوء فلا ينزل معه شيء من الماء، وذلك من الله تعالى لا من النَّوء.

وكذلك كان أبو هريرة، رضي الله عنه، يقول إذا أصبح وقد مُطِر: مُطِرنا

---

(١) النَّوء: سقوط نجم من المنازل في المغارب مع الفجر وطلوع آخر من المشرق يقابله من ساعته، وكانت العرب تضيف الأمطار والرياح والحر والبرد إلى الساقط منها.

(٢) سبق تخريج الحديث فيما مضى، انظر ص (٩٣) من هذا البحث.

بنَوْء الفتح؛ ثم يتلو: ﴿ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها﴾[1].

قال أبو عمر ـ لا يزال الكلام لابن عبد البر رحمه الله ـ: وهذا عندي من نحو قول رسول الله ﷺ: «مطرنا بفضل الله ورحمته».

ومن هذا الباب قول عمر بن الخطاب للعباس بن عبد المطلب حين استسقى به: يا عمَّ رسولِ الله ﷺ: كم بقي من نَوْء الثُّرَيَّا؟ فقال العباس: العلماء يزعمون أنها تعترض في الأفق سبعاً بعد سقوطها، فما مضت سابعة حتى مُطِروا؛ فقال عمر: الحمدلله، هذا بفضل الله ورحمته.

وكأنَّ عمر رحمه الله قد علم أن نوء الثُّرَيَّا وقت يُرْجى فيه المطر ويؤمَّل، فسأله عنه: أخرج أم بقيت منه بقية؟

وروى سفيان بن عيينة عن اسماعيل بن أمية أن النبي، ﷺ سمع رجلاً في بعض أسفاره يقول: مُطِرنا ببعض عَثانين الأسد: فقال رسول الله، ﷺ: «كذبت، بل هو سقيا الله عز وجل». قال سفيان: عثانين الأسد: الذراع والجبهة[2].

ب ـ ابن العربي:

وقال الإمام أبو بكر بن العربي، رحمه الله، في كتابه «أحكام القرآن»:

مقامات الغيب الخمسة التي لا يعلمها إلا الله لا أمارة عليها، ولا علامة عليها، إلا ما أخبر به الصادقُ المجتَبى لاطلاع الغيب من أمارات الساعة، والأربعة سواها لا أمارة عليها؛ فكل من قال: إنه يَنْزِل الغيث غداً فهو كافر، أخبر عنه بأمارات ادّعاها، أو بقولٍ مطلق.

ومن قال: إنه يعلم ما في الرَّحِمِ فهو كافر؛ فأما الأمارة على هذا فتختلف؛ فمنها كُفْر، ومنها تجربة، والتَجربة منها أن يقول الطبيب: إذا كان الثَدْيُ الأيمن

---

(١) سورة فاطر، الآية (٢)، والحديث أخرجه الإمام مالك بلاغاً، انظر: المنتقى بشرح الموطأ للباجي ١/٣٣٥.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١٧/٢٢٩ ـ ٢٣٠.

مسودُ الحلمة فهو ذَكَر، وإن كـان ذلك في الثـدي الأيسر فهو أنثى؛ وإن كـانت المرأة تجد الجَنْبَ الأيمن أثقل فهو ذكر، وإن وجدت الجنب الأشأم [ضد الأيمن، الأيسر] أثقلَ فالـولد أنثى، وادّعىٰ ذلـك عادة لا واجباً في الخِلْقَةِ لم نكفِّـره ولم نفسِّقْه.

وأمـا من ادعى علم الكسب في مستقبـل العمـر فهـو كـافـر، أو أخــبر عن الكوائن الجُمْلِيَّة أو المفصَّلة فيما يكون قبل أن يكون، فلا ريبة في كفره أيضاً.

فـأمـا من أخـبر عن كسـوف الشمس والقمـر: فقـد قـال علماؤنـا: يؤدَّب، ويسجن ولا يكفَّـر. أما عـدم تكفـيره، فـلأن جمـاعـةً قـالـوا: إنـه أمـر يـدرك بالحساب، وتقدير المنـازل، حسبما أخـبر سبحانـه في قوله جلَّ وعـلا: ﴿والقمر قدّرناه منازل﴾[1]؛ فلحسابهم له وإخبارهـم عنه، وصِدْقِهم فيه، توقفت علماؤنـا عن الحكم بتكفيرهم.

وأمـا أدبُهم: فلأنهم يُـدْخِلُون الشـك عـلى العـامـة في تعليق العلم بـالغيب المستـأنَف، ولا يدرون قَـدْر الفرق بـين هذا أو غـيره، فتشـوَّش عقـائدهم في الـدين، وتتزلـزل قواعـدهم في اليقين، فـأُدِّبوا حتى يُسِرُّوا ذلـك إذا عرفـوه ولا يُعْلِنُوا به[2].

جـ ـ سليمان بن عبدالله:

ويقـول الشيخ سليـمان بن عبدالله بن محمـد بن عبد الـوهـاب، رحمـه الله: «الاستسقاء بالنجوم نوعان:

أحدهما: ـ أن يعتقـد أن المنزل للمـطر هو النجم، فهـذا كفر ظـاهر؛ إذ لا

---

(١) سورة يس، الآية (٣٩).

(٢) أحكام القرآن لابن العربي: ٢/٧٣٨ ـ ٧٣٩. ولئن كان رأي المالكيّـة السـابق في تأديب من أخبر عن الكسوف لذلك الملحظ الدقيق، وهو عدم التشويش على العامة، إن الطريق لتـلافي ذلك هو بيان الحق واضحاً والتفريق بينه وبين علم الغيب المحجوب، ولذلك رجح ابن القيم أن الإخبار عنهما لا يدخل تحت النهي. وانظر: تيسير العزيز الحميد ص ٤٤٩.

خالق إلا الله، وما كان المشركون هكذا، بل كانوا يعلمون أن الله هو المنزل للمطر، كما قال تعالى: ﴿ولئن سألتهم من نزّل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها، لَيَقُولُنَّ الله﴾[1]..

الثاني: ـ أن ينسب إنزال المطر إلى النجم، مع اعتقاده أن الله تعالى هو الفاعل لذلك المنزل له، إلا أنه سبحانه وتعالى أجرى العادة بوجود المطر عند ظهور ذلك النجم، فحكى ابن مفلح خلافاً في مذهب أحمد في تحريمه وكراهته، وصرَّح أصحاب الشافعي بجوازه.

والصحيح أنه محرم؛ لأنه من الشرك الخفي، وهو الذي أراده النبي ﷺ وأخبر أنه من أمر الجاهلية، ونفاه، وأبطله ـ بقوله عليه الصلاة والسلام: «أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم والنياحة»[2] ـ وهو الذي كان يزعم المشركون، ولم يزل موجوداً في هذه الأمة إلى اليوم»[3]...

وعندما ينسب المطر إلى الأنواء ومنازل القمر وغير ذلك، يدعي بهذا علماً للغيب، إذ إنه عندما يرى هذه المظاهر أو الأسباب يدعي نزول المطر، وقد سبق أن هذا مما اختص الله تعالى به، وإن كان قد يعلمه الإنسان ظناً في مرحلة انعقاد أسبابه، كما سبق بيانه في مفاتح الغيب، والله سبحانه أعلم.

صور أخرى لادّعاء علم الغيب

ومما يدخل في باب ادعاء علم الغيب: العِرافة، والطرق بالحصىٰ، والتنجيم، والكهانة، وقد يطلق عليها جميعها اسم الكهانة.

---

(١) سورة العنكبوت، الآية (٦٣).

(٢) أخرجه مسلم في الجنائز، باب التشديد في النياحة: ٢/٦٤٤، والبغوي في شرح السنة: ٥/٤٣٧.

(٣) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد للشيخ سليمان بن عبدالله ص ٤٥٤ ـ ٤٥٥:

وسنفرد كلاً منها بكلمة موجزة، نبين من خلالها حكم من يدعي شيئاً من ذلك أو يفعله أو يصدقه.

أ ـ الكِهانة:

● فالكهانة هي: ادعاء علم الغيب، كالإخبار بما سيقع في الأرض مع الاستناد إلى سبب. والأصل فيه: استراق الجنيّ السمع من كلام الملائكة، فيلقيه في أذن الكاهن.

والكاهن لفظ يطلق على العرّاف، والذي يضرب بالحصى، والمنجِّم، ويطلق على من يقوم بأمرٍ آخرٍ، ويسعى في قضاء حوائجه.

قال في «المحكم»: الكاهن: القاضي بالغيب. وقال في «الجامع»: العرب تسمي كل من آذن بشيء قبل وقوعه كاهناً.

وقال الخطّابي: الكهنة قوم لهم أذهان حادة ونفوس شريرة وطباع نارية، فألِفَتْهم الشياطين، لما بينهم من التناسب في هذه الأمور، وساعدتهم بكل ما تصل قدرتهم إليه. فالكاهن هو الذي يدّعي مطالعة علم الغيب، ويخبر الناس عن الكوائن.

● وكانت الكهانة في الجاهلية فاشية، خصوصاً في العرب، لانقطاع النبوة فيهم، وهي على أصناف:

الأول: ما يتلقونه من الجن، فإن الجن كانوا يصعدون إلى جهة السماء، فيركب بعضهم بعضاً إلى أن يدنو الأعلى بحيث يسمع الكلام، فيلقيه إلى الذي يليه، إلى أن يتلقاه من يلقيه في أذن الكاهن فيزيد فيه، فلما جاء الإسلام، ونزل القرآن، حرست السماء من الشياطين وأرسلت عليهم الشهب، فبقي من استراقهم ما يتخطفه الأعلى، فيلقيه إلى الأسفل قبل أن يصيبه الشهاب، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: ﴿**إلا من خَطِفَ الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب**﴾[1].

---

(١) سورة الصافات، الآية (١٠).

وكانت إصابة الكهان قبل الإسلام كثيرة جداً، كما جاء في أخبار شق وسطيح ونحوهما[1]، وأما في الإسلام؛ فقد ندر ذلك جداً حتى كاد يضمحل ولله الحمد.

والصنف الثاني من الكهانة: ما يخبر الجنيّ به من يواليه بما غاب عن غيره، مما لا يطلع عليه الإنسان غالباً، أو يطلع عليه من قرُب منه لا من بعُد.

والثالث: ما يستند إلى ظن وتخمين وحدس، وهذا قد يجعل الله فيه لبعض الناس قوة، مع كثرة الكذب فيه.

والرابع: ما يستند إلى التجربة والعادة، فيستدل على الحادث بما وقع قبل ذلك. ومن هذا القسم الأخير ما يضاهي السحر، وقد يعتضد بعضهم في ذلك بالزجر والطرق والنجوم، وكل ذلك مذموم شرعاً[2].

● وورد في ذم الكهانة ما أخرجه أصحاب السنن وصححه الحاكم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «من أتى كاهناً أو عرّافاً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أُنزل على محمد»[3]، وله شاهد من حديث جابر وعمران بن حصين، أخرجهما البزار بسندين جيدين، ولفظهما «من أتى كاهناً»، وأخرجه مسلم من حديث امرأة من أزواج النبي ﷺ - ومن الرواة من سمّاها حفصة - بلفظ: «من أتى عرّافاً»[4]، وأخرجه أبو يعلى من حديث ابن

---

(١) هما: شقّ بن أنمار بن نزار، وسطيح بن مازن بن غسان، من كهان الجاهلية المشهورين.

(٢) فتح الباري لابن حجر: ١٠/٢١٦ - ٢١٧.

(٣) أخرجه الإمام احمد في المسند: ٢/٤٢٩، ٤٧٦، وابو داود في الطب، باب الكاهن: ٥/٣٧٠، والترمذي في الطهارة باب ما جاء في كراهية اتيان الحائض: ١/٤١٨ - ٤١٩ وقال: لا نعرف هذا الحديث الا من حديث حكيم الأثرم عن ابي تميمة الهُجيمي عن أبي هريرة وضعّف محمد - البخاري - هذا الحديث من قبل إسناده، وابن ماجة في الطهارة، باب النهي عن اتيان الحائض، والدارمي في الطهارة: ١/٢٥٩، والحاكم في المستدرك: ١/٨ وصححه على شرط الشيخين، والبيهقي في السنن: ٨/١٣٥، وعزاه المنذري في مختصر السنن والحافظ ابن حجر في الفتح للأربعة. وانظر: فيض القدير للمناوي ٦/٢٣ ونقل تصحيحه عن العراقي.

(٤) أخرجه مسلم في السلام باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان: ٤/١٧٥١ وأحمد: ٤/٦٨، ٥/٣٨٠

مسعود بسند جيد. لكن لم يصرح برفعه، ومثله لا يقال بـالرأي، ولفـظه: «من أتـىٰ عرافاً أو ساحراً أو كاهناً»، واتفقت ألفاظهم على الوعيد بلفظ حديث أبي هريرة، إلا حديث مسلم فقال فيه: «لم يقبل لهما صلاة أربعين ليلة».

ووقع عند الطبراني من حديث أنس بسند ليّن مرفوعـاً بلفظ: «من أتى كاهنـاً فصدَّقه بما يقول فقد برىء مما أنزل على محمد، ومن أتاه غير مصدِّق له لم تقبـل صلاته أربعين يوماً».

والأحاديث الأُوَل، مع صحتهـا وكثرتهـا، أولى من هذا. والـوعيد جـاء تارة بعدم قبول الصلاة وتارة بالتكفير، فيحمل على حالين من الآتي. أشـار الى ذلك القرطبي[1].

فما أعظم ضلال أولئك الذي يدَّعون معرفة الغيب بالكهانة! وما أشدَّ عقوبة أولئك الذين يأتونهم ويصدّقونهم فيما يزعمـون، حتى إن الشكوى ارتفعت عـلى ألسنة كثير من العلماء في قرون سلفت، عمّ فيها ذلـك الضلال، فقـال القرطبي رحمه الله، في تفسيره:

وقـد انقلبت الأحوال في هـذه الأزمان ـ زمـان القرطبي ـ بـإتيـان المنجمـين والكُهَّان لا سيما بالديار المصرية، فقد شاع في رؤسائهم وأتباعهم وأمرائهم اتخاذ المنجّمين، بل ولقد انخدع كثير من المنتسبين للفقـه والدين، فجـاؤوا إلى هؤلاء الكهنة والعرّافين، فبهرجوا عليهم بالمُحَال، واستخرجـوا منهم الأموال فحصلوا من أقـوالهم على السراب والآل[2]، ومن أديـانهم على الفسـاد والضـلال. وكـل ذلك من الكبائر، لقولـه عليه السـلام: «لم تقبل لـه صلاة أربعـين ليلة» فكيف بمن اتخذهـم وأنفق عليهم معتمداً على أقوالهم؟

روى مسلم رحمه الله عن عائشـة، رضي الله عنها، قـالـت: سأل رسـولَ الله

---

(١) فتح الباري للحافظ ابن حجر العسقلاني: ١٠/٢١٧.

(٢) السراب: الذي يكون نصف النهـار لاطئاً بـالأرض لاصقاً بهـا كأنـه ماء جـارٍ، والآل: الذي يكون بالضحى كالماء بين السماء والأرض يرفع الشخوص ويزهاها.

ﷺ أناسٌ عن الكهان؟ فقال: «إنهم ليسوا بشيء» فقالوا: يا رسول الله، إنهم يحدّثونا أحياناً بشيء فيكون حقاً! فقال رسول الله، ﷺ: «تلك الكلمة من الحق يَخْطَفُها الجنيّ فيَقُرها[1] في أذن وليّه قرَّ الدجاجة. فيخلطون معها مائة كذبة»[2]. . . وأخرجه البخاري أيضاً من حديث ابي الأسود محمد بن عبد الرحمن عن عروة عن عائشة أنها سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «إن الملائكة تنزل في العَنَان، وهو السحاب، فتذكر الأمر قُضي في السماء، فتسترق الشياطينُ السمع فسمعه فتوحيه إلى الكُهَّان، فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم»[3].

ب ـ العرافة:

● العرّاف هو الذي يزعم أنه يعرف الأمور الغيبية بمقدمات وأسباب قولية أو فعلية يستدل بها على مواقعها، كالشيء يُسْرَق، فيعرف المظنونَ به السرقة، وتتهم المرأة بالزنا فيعرف مَنْ صاحبها[4].

وقال شيخ الاسلام ابن تيمية: العراف اسم للكاهن والمنجم والرمّال ونحوهم، كالحازر الذي يدَّعي علم الغيب أو يدَّعي الكشف.

وقال أيضاً: والمنجم يدخل في اسم العرّاف، وعند بعضهم في معناه، وقال أيضاً: والمنجم يدخل في اسم الكاهن عند الخطابي وغيره من العلماء، وحكى ذلك عن العرب، وعند آخرين: هو من جنس الكاهن وأسوأ حالاً منه، فيلحق به من جهة المعنى.

وقال الإمام أحمد: العرّاف طرف من السحر، والساحر أخبث،

وقال أبو السعادات، ابن الأثير: العرّاف: المنجّم والحازر الذي يدعي علم

---

(١) القرّ: ترديد الكلام في أذن المخاطب حتى يفهمه.

(٢) أخرجه مسلم في السلام، باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان، برقم (٢٢٢٨)، والبغوى في شرح السنة ١٢/١٨٠

(٣) أخرجه البخاري في الطب، باب الكهانة: ١٠/٢١٦، وانظر: تفسير القرطبي: ٣/٧ و٤.

(٤) معالم السنن للخطابي بهامش مختصر المنذري لسنن أبي داود: ٥/٣٧٠.

الغيب وقد استأثر الله تعالى به.

وقال ابن القيم: من اشتهر بإحسان الزجر عندهم سمّوه عائفاً وعرّافاً[1].
والمقصود من هذا: معرفة أن من يدعي علم شيء من المغيبات، فهو إما داخل في اسم الكاهن، وإما مشارك له في المعنى فيلحق به، وذلك أن إصابة المخبر ببعض الأمور الغائبة في بعض الأحيان يكون بالكشف، ومنه ما هو من الشياطين، ويكون بالفأل، والزجر، والطير، والضرب بالحصى، والخط في الأرض، والتنجيم، والكهانة والسحر، ونحو هذا من علوم الجاهلية. ونعني بالجاهلية: كل من ليس من أتباع الرسل؛ كالفلاسفة والكُهّان والمنجمين، وجاهلية العرب الذين كانوا قبل مبعث النبي، ﷺ، فإن هذه من علوم قوم ليس لهم علم بما جاءت به الرسل عليهم السلام.

وكل هذه الأمور يسمى صاحبها كاهناً وعرافاً، فمن أتاهم فصدّقهم بما يقولون لحقه الوعيد.

● وقد ورث هذه العلوم عنهم أقوامٌ، فادّعوا بها علم الغيب الذي استأثر الله تعالى بعلمه، وادّعوا أنهم أولياء، وأن ذلك كرامة، ولا ريب أن من ادعى الولاية، واستدل عليها بإخباره ببعض المغيبات، فهو من أولياء الشيطان، لا من أولياء الرحمن؛ إذ الكرامة أمر يجريه الله على يد عبده المؤمن المتقي، إما بدعاء أو أعمال صالحة لا صنع للولي فيها، ولا قدرة له عليها، بخلاف من يدعي أنه وليّ لله، ويقول للناس: اعلموا اني أعلم المغيبات. فإن مثل هذه الأمور قد تحصل بما ذُكر ـ آنفاً ـ من الأسباب، وإن كانت أسباباً محرمة كاذبة في الغالب، ولهذا قال النبي، ﷺ، في وصف الكُهّان: «فيكذبون معها مائة كذبة»، فبيَّن أنهم يصدقون مرة ويكذبون مائة. وهكذا حال من سلك سبيل الكهان ممن يدعي الولاية والعلم بما في ضمائر الناس، مع أن نفس دعواه دليل على كذبه، لأن في دعواه الولاية تزكية النفس المنهي عنها بقوله تعالى: ﴿فلا

---

(١) هذه الاقوال كلها مأخوذة من: تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد ص ٤١٢.

تـزكـوا أنفسكم﴾[1]، وليس هـذا من شـأن الأوليـاء، بـل شـأنهم الإزراء عـلى نفوسهم وعيبهم لها، وخوفهم من ربهم.

فكيف يأتون الناس يقولون: اعرفوا أنّا أولياء، وأنّا نعلم الغيب. وفي ضمن ذلك طلب المنزلة في قلوب الخلق، واقتناص الدنيا بهذه الأمور، وحسبك بحال الصحابة والتـابعين، وهم سـادات الأولياء، أفكـان عندهم من هـذه الدعـاوى والشطحات شيء؟ لا والله، بـل كان أحـدهم لا يملك نفسه من البكـاء إذا قرأ القـرآن كـالصـدّيق، وكـان عمـر يُسمَع نشيجـه من وراء الصفـوف يبكي في صلاته، وكان يمر بالآية في وِرده بالليل فيمرض منها ليـالي يعوده النـاس، وكان تميم الداري يتقلب في فراشه، لا يستطيع النوم إلا قليـلاً، خوفـاً من النار، ثم يقوم إلى صلاته.

ويكفيك في صفات الأولياء: ما ذكر الله تعالى من صفاتهم في سورة الـرعد، والمؤمنـين، والفرقـان، والذاريـات، والـطور، فـالمتصفـون بتلك الصفـات هم الأولياء الأصفياء، لا أهل الدعوى والكذب، ومنازعة رب العالمين فيـما اختص بـه من الكبريـاء والعظمـة، وعلم الغيب، بـل مجـرد دعـواه علم الغيب كُفْـرٌ، فكيف يكون المدَّعي لذلك وليّاً لله؟ ولقد عـظم الضرر، واشتدَّ الخَـطْب بهؤلاء المفـترين، الذين ورثـوا هذه العلوم عن المشركـين، ولبَّسـوا بهـا عـلى خفـافيش البصائر. نسأل الله السلامة والعافية في الدنيا والآخرة[2].

جـ ـ التنجيم:

وقد يزعم بعض الناس أن هناك مدركاً من مـدارك علم الغيب يلجؤون إليه للتعرف على ما سيقع مستقبلاً، وهو التنجيم.

● والمنجِّمون هم القائلون بالدلالات النجومية ومقتضى أوضاعها في الفلك، وآثارها في العناصر، وما يحصل من الامتزاج بين طباعها بالتنـاظر، ويتـأدى من

---

(١) سورة النجم، الآية (٣٣).

(٢) عن: تيسير العزيز الحميد للشيخ سليمان بن عبد الله، ص ٤١٢ ـ ٤١٤.

ذلك المزاج إلى الهواء، وهؤلاء المنجمّون ليسوا من الغيب في شيء، إنما هي ظنون حدسية وتخمينات مبنية على التأثير النجومية، وحصول المزاج منه للهواء، مع مزيد حدس، يقف به الناظر على تفصيله في الشخصيات في العالم، وذلك كله باطل[1]، حذَّر منه النبي ﷺ فقال: من اقتبس علماً من النجوم اقتبس شعبة من السحر، زاد ما زاد»[2].

وقال الإمام الخطابي، رحمه الله:

● علم النجوم المنهي عنه: هو ما يدّعيه أهل التنجيم من علم الكوائن والحوادث التي لم تقع، وستقع في المستقبل، كإخبارهم بأوقات هبوب الرياح، ومجيء المطر، وظهور الحر والبرد، وتغيّر الأسعار، وما كان من معانيها من الأمور. يزعمون أنهم يدركون معرفتها بسير الكواكب في مجاريها، وباجتماعها واقترانها، ويدَّعون لها تأثيراً في السُّفْليات، وأنها تتصرف على أحكامها، وتجري على قضايا موجباتها.

وهذا منهم تحكُّم على الغيب وتعاطٍ لعلمٍ استأثر الله سبحانه به، لا يعلم الغيب أحد سواه.

● فأما علم النجوم الذي يدرك من طريق المشاهدة والحس، كالذي يعرف به الزوال، ويعلم به جهة القبلة، فإنه غير داخل فيما نهي عنه.

وذلك: أن معرفة رصد الظل ليس شيئاً بأكثر من أن الظل ما دام متناقصاً فالشمس بَعْدُ صاعدةٌ نحو وسط السماء في الأفق الشرقي، وإذا أخذ في الزيادة فالشمس هابطة من وسط السماء نحو الأفق الغربي.

وهذا علم يصح دَرْكه من جهة المشاهدة، إلا أن أهل هذه الصناعة، قد

---

(١) انظر: مقدمة ابن خلدون: ١/١٩٥، وقد ردّ عليهم شيخ الاسلام ابن تيمية وبيّن خطأهم. انظر مجموع الفتاوى: ١٧٢/٣٥ ـ ١٧٣.

(٢) أخرجه أبو داود في الطب، باب في النجوم: ٣٧١/٥، وابن ماجه في الأدب، باب تعلّم النجوم: ١٢٢٨/٢.

دبـروه، بما اتخـذوا لـه من الآلـة التي يستغني النـاظـر فيهـا عن مـراعـاة مـدتـه ومراصده.

وأما ما يستدل به من جهة النجوم على جهة القبلة فإنما هي كواكب أرصدها أهل الخبرة بها من الأئمة الذين لا نشك في عنايتهم بأمر الدين ومعـرفتهم بها، وصِدْقِهم فيما أخبروا به عنها. مثل أن يشاهدوها بحضرة الكعبة، ويشـاهدوهـا في حال الغيبة عنهـا، فكان إدراكُهم: الـدلالة عنهـا بالمعـاينة، وإدراكنـا لذلـك بقبولنا لخبرهم، إذ كانوا غير متهمين في دينهم ولا مقصِّرين في معرفتهم[1].

● وأمـا الشيخ سليـمان بن عبدالله، رحمـه الله، فقـد جعـل التنجيم ثـلاثـة أقسام:

الأول: ما هو كفـر بإجمـاع المسلمين، وهـو القول بـأن الموجـودات في العالم السفلي مركبة على تأثير الكـواكب والروحـانيات، وأن الكـواكب فاعلة مختـارة، وهـذا كفر بـإجماع المسلمـين. وهذا قـول الصائبـة المنجمين الـذين بعث إليهم إبراهيم الخليل عليه السلام...

الثـاني: الاستـدلال عـلى الحـوادث الأرضيـة بمسـير الكـواكب، واجتـماعهـا وافـتراقها، ونحـو ذلك، ويقـول: إن ذلك بتقـدير الله ومشيئتـه، فـلا ريب في تحـريم ذلك، واختلف المتـأخرون في تكفـير القائـل بذلـك، وينبغي أن يقـطع بكفـره، لأنها دعوى لعلم الغيب، الـذي استأثـر الله تعالى بعلمـه، بما لا يـدل عليه.

الثـالث: وهو تعلم منـازل القمر والشمس، لـلاستدلال بـذلك عـلى القبلة وأوقات الصلوات والفصول[2]...

قال ابن رجب: والمأذون في تعلمه: علـم التسيير لا علـم التأثير، فـإنه بـاطل محرم، قليله وكثيره. أما علم التسيير، فتعلم مـا يحتاج إليـه للاهتـداء، ومعرفـة

(١) معالم السنن للخطابي: ٥/٣٧١ ـ ٣٧٢، مع مختصر المنذري.
(٢) انظر: تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد، ص ٤٤١ ـ ٤٤٨.

القبلة، والطرق، جائز عند الجمهور، وما زاد عليه لا حاجة إليه لشغله عما هو أهم منه، وربما أدى تدقيق النظر فيه إلى إساءة الظن بمحاريب المسلمين، كما وقع من أهل هذا العلم قديماً وحديثاً، وذلك يفضي اعتقاده إلى خطأ السلف في صلاتهم وهو باطل[1].

---

(١) عن المرجع السابق، ص ٤٤٨ ـ ٤٤٩. وأنظر ايضاً مجموع فتاوى شيخ الاسلام: ١٦٦/٣٥ ـ ١٩٧ ـ ففيه تفصيل لحكم التنجيم واتيان المنجمين وكسبهم عن هذا الطريق.

الخاتمة

وبعد . . فقد ألمعنا في هذا البحث إلى أن الله سبحانه وتعالى قد جعل هذا العالم المخلوق دليلاً على وجوده وقدرته، كما جعل التناسق في نظامه دليلاً على وحدانيته، ووجوب التوجه الى الله تعالى بالعبادة، فهو وحده ـ سبحانه ـ الذي يستحق العبادة.

● وهذا العالم قسمان: غيب وشهادة، فعالم الشهادة: هو ما يقع تحت مجال الحواس، وهذه الحواس سبيلنا للتعرف على موجودات عالم الشهادة، والعقل هو أداة الحكم في ذلك. وأما عالم الغيب: فهو ما لا يقع تحت مجال الحس المباشر أو غير المباشر بالنسبة لنا، وإن كان هذا لا يعني أن عالم الغيب ليس موجوداً، إذ إن من القواعد المقررة أن عدم الوجدان لا يستلزم عدم الوجود، وفي هذا إشارة إلى خطأ الذين جعلوا العالم قسمين: المحسوس والمعقول، والمعقول في الحقيقة: ما كان في العقل، وأما الموجودات الخارجية فيمكن أن ينالها الحس، وأن يوقف الإحساس بها على شروط متيقنة الآن ـ على حد تعبير شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ.

● وطريق معرفتنا لكل ما يتعلق بعالم الغيب هو الخبر الصادق عن المعصوم: قرآناً وسنةً، أما القرآن الكريم فهو قطعي الثبوت، أي اننا نقطع ونجزم حتماً بصحة نقل كل كلمة منه وكل حرف. وأما السنة فهي بجملتها مقطوع بها،

ولذلك يشترط صحة الحديث الذي يستشهد به لإثبات أي قضية شرعية، غيبية أو غيرها، ولذلك لن تكون الروايات الضعيفة، ولا الرؤى والأحلام، والأوهام والظنون. . الخ سبيلاً للتعرف على عالم الغيب. وهذا أصل عظيم وضابط دقيق صحيح نستطيع من خلاله أن نحكم على كثير من الآراء والأقوال التي جاءت في تفسير بعض الآيات القرآنية الكريمة التي تحدثت عن أمور غيبية كخلق السموات والأرض. . وطبيعة الروح. . والبرزخ. . الخ مما لم يطلِعْنا الله تعالى عليه ولم نشهده بحواسنا.

● وإذا كان الإسلام قد أعلى من مكانة العقل وقيمته، وجعله مناط التكليف وأداة الحكم في كل ما يقع تحت الحواس، فإن له مجالاً محدداً يستطيع أن يعمل فيه وأن يتأمل ويتدبر، وما وراء ذلك فإنه يقف أمامه عاجزاً، إذ هو من مجال آخر يعرّفنا به الوحي المنزل، فإن الله سبحانه هو الذي يعلم ذلك كله: ﴿**ألا يعلم من خلق؟ وهو اللطيف الخبير**﴾، ﴿**أأنتم أعلم أم الله**﴾؟ ﴿**والله يعلم وأنتم لا تعلمون**﴾. وفي هذا صيانة للعقل نفسه من أن يتيه أو أن يتبدَّد جهده.

● ولذلك لن نجد - في الاسلام - ذلك الصراع الذي نجم في أوروبا في فترةٍ ما من الزمن، بين الدين والعقل والحس، وقد رأينا - فيما سبق - لمحة عن آثاره في الفكر الأوروبي، ومن هنا كانت تلك الإلماعة الموجزة الهامة إلى طبيعة العلم التجريبي وطريقة البحث فيه، أو المنهج التجريبي وحدوده، والذي عرفنا من خلالها: أن العلم المادي نفسه يخضع للغيب، ومن هنا تسقط كل تلك الدعاوى الزائفة التي يتذرع بها بعض أدعياء العلم أو عُبَّاد المنهج العلمي التجريبي لإنكار عالم الغيب، بحجة أن ما يدخل في عالم الغيب لا يخضع للمنهج التجريبي الذي يقوم على أساس الملاحظة والتجربة. . .

● وبذلك تظهر لنا أهمية الإيمان بالغيب ومكانته في الإسلام، فهو صفة المؤمنين المتقين، إذ هو ركن من أركان الإيمان، بل هو أعظم أركان الايمان، وبهذا يرتقي هذا المخلوق إلى مستوى الإنسانية الكريمة، بينما يهبط كل من يتنكر

للغيب إلى مستوى البهيمية، ويصبح إنكار الغيب إلحاداً في الدين، ونقصاً في العقل، وعائقاً أمام التقدم العلمي نفسه.

● ثم ألمحنا بعد ذلك إلى أن الغيب قسمان: غيب إضافي أو نسبي، وغيب حقيقي أو مطلق؛ فالأول غيب بالنسبة لبعض المخلوقات دون بعض، أو هو غيب في حالٍ بالنسبة لنا دون حال، ولهذا الغيب مراتب متدرجة، وأما الثاني فهو الغيب الحقيقي الذي استأثر الله تعالى بعلمه، وقد يظهر عليه من يشاء الله تعالى من رسله، وعندئذ يدخل في دائرة الغيب النسبي أو الإضافي.

● وقد اختص الله سبحانه وتعالى بعلم الغيب، وفي قمة ذلك مفاتح الغيب الخمس: **﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمهاإلا هو﴾**، وعلمه سبحانه وتعالى علم شامل محيط بكل شيء، ومن حكمته سبحانه أنه حجب عن الإنسان بعضاً من العلم، الذي هو علم الغيب، إذ ان معرفة ذلك بالنسبة للإنسان، لن تفيده في وظيفته الكبرى التي خلقه الله تعالى من أجلها، وهي وظيفة العبادة والخلافة في الأرض لعمارتها وفق منهج الله تعالى، بينما علَّمه ـ سبحانه ـ كل ما يحتاجه لأداء وظيفته، وجعل عنده القدرة على التعلم لذلك كله.

● وإذا كان سبحانه قد استأثر بعلم الغيب، فإن هذا يعني أن كل من يدعي علم شيء من الغيب، من تلقاء نفسه، يكون ضالاً ومكذباً لخبر الله سبحانه، وهذا يبين لنا حكم المنجمين والكهان والعرافين وكل الذين يزعمون أنهم يخبرون عما قد يقع في المستقبل من حوادث، أو يزعمون علم ما في نفس الإنسان. . وغير ذلك من شعوذة وكذب، مما نجد له صوراً في بعض الصحف والمجلات التي تحتوي على زاوية لقراءة حظ الإنسان. . أو معرفة ما يقع له من خلال معرفة الأبراج والكواكب. . .

● وأسأل الله تعالى أن ينفع بهذه الكلمات: كاتبها وقارئها، وإن انتفع بها قارئها فأسأله دعوة صالحة بظهر الغيب، وإن وقع على خطأ فأسأله إصلاحه. وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

مراجع البحث ومصادره

وقد رتبت هذه المراجع والمصادر ترتيباً هجائياً، دون اعتبار لـ: الـ، أبو، ابن، ضمن الترتيب. . .

- أحكام القرآن، لأبي بكر بن العربي، تحقيق علي محمد البجاوي، مطبعة عيسى الحلبي بمصر.
- الإذاعة لما كان وما يكون بين يدي الساعة، لصديق حسن خان، المكتبة العلمية، بيروت.
- أسباب النزول للسيوطي، بهامش تفسير الجلالين، دار الثقافة بقطر. ١٩٨٥ م.
- الإسلام دين الفطرة، لعبد العزيز جاويش، سلسلة كتاب الهلال بمصر.
- الإسلام والعلم، بحث للاستاذ توفيق الطيب بالمجلد التاسع من حضارة الاسلام سنة ١٣٨٥ هـ بدمشق.
- إعادة كتابة العلوم من وجهة نظر إسلامية، بحث للدكتور زغلول النجار في مؤتمر التضامن الاسلامي للعلوم والتكنولوجيا في الرياض عام ١٣٩٥ هـ، منشور بمجلة المجتمع الكويتية.
- الله والكون، للدكتور محمد جمال الدين الفندي، الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة.
- الله يتجلى في عصر العلم - ترجمة عبد المجيد سرحان، طبعة دار القلم، بيروت.
- الإنسان ذلك المجهول، تأليف الكسيس كاريل، ترجمة شفيق أسعد فريد، مكتبة المعارف، بيروت.
- البداية والنهاية للحافظ ابن كثير الدمشقي، مكتبة النصر بالرياض.

تأملات في سلوك الإنسان، د. الكسيس كاريل، ترجمة محمد القصاص، مكتبة مصر بالقاهرة.
- تجديد التفكير الديني، تأليف محمد اقبال، ترجمة عباس محمود، مطبعة لجنة التأليف، ١٩٦٨ م.
- ترتيب القاموس المحيط، للأستاذ الطاهر أحمد الزاوي، مطبعة عيسى الحلبي، الطبعة الثانية.
- التصور الإسلامي للكون والحياة والانسان، عثمان جمعة ضميرية، دار الأرقم بالكويت، ١٤٠٠ هـ.
- التعريفات للسيد الجرجاني، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر، ١٣٧٥ هـ.
- تفسير البغوي، بهامش تفسير الخازن، المكتبة التجارية الكبرى بمصر.
- تفسير البيضاوي، المسمى: أنوار التنزيل وأسرار التأويل. دار الفكر، بيروت.
- تفسير أبي السعود العمادي، مكتبة الرياض.
- تفسير الطبري، مطبعة البابي الحلبي بمصر، وطبعة دار المعارف بتحقيق محمود شاكر.
- تفسير القرطبي، جامع أحكام القرآن، الطبعة الثانية، دار الكاتب العربي بالقاهرة.
- تفسير ابن كثير، مكتبة الرياض الحديثة، ١٤٠٠ هـ.
- تفسير المنار، للسيد محمد رشيد رضا، الطبعة الرابعة، مكتبة القاهرة.
- التوحيد واثبات صفات الرب عز وجل، للامام ابن خزيمة، الطبعة المنيرية.
- تهافت العلمانية، د. عماد الدين خليل، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد للشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ، المكتب الإسلامي.
- الجامع لأحكام القرآن، تفسير القرطبي.
- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، لشيخ الاسلام ابن تيمية، مطبعة المدني بالقاهرة.
- خصائص التصور الإسلامي، للأستاذ سيد قطب، دار الشروق.
- خلق الإنسان بين الطب والقرآن، د. محمد علي البار، الطبعة الأولى. الدار السعودية.
- درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية، تحقيق د. محمد رشاد سالم، مطابع جامعة الإمام محمد بن سعود الاسلامية بالرياض.

- الدين: بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، د. محمد عبدالله دراز، دار القلم بالكويت.
- الرسالة التدمرية، لابن تيمية، طبعة المكتب الاسلامي.
- روح المعاني للآلوسي، دار إحياء التراث العربي مصورة عن الطبعة المنيرية.
- سلسلة الأحاديث الصحيحة، للشيخ محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الاسلامي.
- السنة لأبن أبي عاصم، تحقيق الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الاسلامي.
- سنن الترمذي، طبعة الحلبي بمصر.
- سنن الدارمي، بتحقيق محمد أحمد دهمان، دار الكتب العلمية، بيروت.
- سنن أبي داود، مختصر المنذري مع معالم السنن وتهذيب ابن القيم، مطبعة السنة المحمدية.
- سنن ابن ماجه، بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة عيسى الحلبي.
- سنن النسائي، دار الكتاب العربي، بيروت، مصورة عن طبعة مصر.
- شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، للالكائي، تحقيق د. أحمد سعد حمدان، مكتبة دار طيبة بالرياض.
- شرح السنة للامام البغوي، بتحقيق الأرناؤوط، المكتب الاسلامي.
- شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز، تحقيق محمد بشير عيون، دار البيان، بدمشق.
- شرح الفقه الأكبر لأبي حنيفة تأليف ملا علي القاري، بيروت.
- صحيح الإمام مسلم، بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي.
- عقيدة المسلم، للشيخ محمد الغزالي، نشر الشؤون الدينية في دولة قطر.
- العلمانية: نشأتها وتطورها وآثارها، تأليف سفر بن عبد الرحمن الحوالي، دار مكة للطباعة، نشر مركز البحث العلمي بجامعة أم القرى.
- علم أصول الفقه، للشيخ عبد الوهاب خلاف، دار القلم بالكويت.
- العلم يدعو للإيمان، تأليف كريسي موريسون، ترجمة محمود باشا الفلكي، مكتبة النهضة المصرية عام ١٩٦٥ م.
- عمدة القاري للعيني شرح صحيح البخاري، دار الفكر، مصورة عن الطبعة المنيرية.
- فتح الباري بشرح البخاري للإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني، نشر إدارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والإرشاد بالرياض.

ـ الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، د. محمد البهي، مكتبة وهبة بالقاهرة.
ـ فيض القدير للمناوي بشرح الجامع الصغير للسيوطي، دار المعرفة، بيروت.
ـ في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب، دار الشروق.
ـ القرآن والعلم الحديث، د. عبد الرزاق نوفل.
ـ كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي، مكتبة النهضة المصرية.
ـ الكيمياء العامة. تأليف فريدريك لونجو، ترجمة د. مروان كمال وآخرين، مراجعة د. اسحاق فرحان. منشورات مجمع اللغة العربية الأردني. ١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١ م.
ـ الكيمياء العامة وغير العضوية تأليف ب ج. ديرانت، ترجمة د. سامي كيرلس وآخرين، منشورات المجلس الأعلى للعلوم بالقاهرة، مطبعة جامعة عين شمس عام ١٩٦٢ م.
ـ ما أصل الإنسان؟ د. موريس بوكاي، ترجمة ونشر مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض، ١٤٠٦ هـ.
ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمي ـ دار الكتاب العربي في بيروت.
ـ مجموع فتاوى شيخ الاسلام ابن تيمية، جمع محمد بن عاصم، طبعة المغرب.
ـ المختار من كنوز السنة النبوية، د. محمد عبدالله دراز، إدارة الشؤون الدينية في قطر.
ـ مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم، مكتبة الرياض.
ـ مدخل إلى الثقافة الإسلامية، د. محمد رشاد سالم. دار القلم بالكويت.
ـ مذاهب فكرية معاصرة، للأستاذ محمد قطب، دار الشروق.
ـ المستقبل لهذا الدين، للأستاذ سيد قطب، منشورات الاتحاد العالمي الاسلامي للمنظمات الطلابية.
ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل، المكتب الإسلامي.
ـ مشاهد القيامة في القرآن، للأستاذ سيد قطب، دار الشروق.
ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، وضعه محمد فؤاد عبد الباقي، المكتبة الاسلامية في تركيا.
ـ معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة.
ـ المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة.
ـ مفتاح دار السعادة، لابن القيم الجوزية، الطبعة الثانية، دار الفكر في بيروت.

- مفردات الراغب الاصفهاني، طبعة مصطفى البابي الحلبي.
- مقال عن المنهج، تأليف ديكارت، ترجمة محمد محمود الخضيري، المطبعة السلفية، ١٣٤٩ هـ.
- مقدمات المناهج، للأستاذ أنور الجندي، دار الاعتصام بالقاهرة.
- مقدمة ابن خلدون، دار الكتاب اللبناني في بيروت.
- منهج البحث العلمي عند مفكري الإسلام، د. علي سامي النشار، دار المعارف بالقاهرة.
- منهج التربية الإسلامية، للأستاذ محمد قطب، دار الشروق.
- موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان، للهيثمي، تحقيق محمد عبد الرزاق حمزة، دار الكتب العلمية.
- موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين، للشيخ مصطفى صبري، الطبعة الثانية، دار إحياء التراث العربي.
- ميزان الأصول في نتائج العقول - المختصر - للإمام السمرقندي، تحقيق د. محمد زكي عبد البر، مطابع الدوحة الحديثة، قطر ١٤٠٤ هـ.
- نشأة الدين، د. علي سامي النشار، مكتبة الخانجي بمصر.
- نظم الدرر في تناسب الآي والسور للإمام برهان الدين البقاعي، بمطبعة مجلس دائرة احياء المعارف العثمانية بالهند.
- النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، تحقيق محمود الطناحي، الطبعة الثانية، المكتبة الاسلامية، بيروت.
- الوحي المخمدي، للسيد محمد رشيد رضا، المكتب الإسلامي.

محتويات الكتاب


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com